

تفسير سورة النحل

وهي مكة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

ربع

يخبر تعالى عن اقتراب الساعة ودنوها معبراً بصيغة الماضي الدال على التحقيق والوقوع لا محالة كقوله: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الانباء: ١] ، وقال: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْتَشَقُّ الْقَمَرُ﴾ [القمر: ١]

وقوله: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ أى: قرب ما تباعد فلا تستعجلوه. يحتمل أن يعود الضمير على الله، ويحتمل أن يعود على العذاب، وكلاهما متلازم، كما قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَخْتٌ وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ. يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [المكيت: ٥٣، ٥٤]. وروى ابن أبي حاتم عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «تطلع عليكم عند الساعة سحابة سوداء من المغرب مثل الترس، فما تزال ترتفع في السماء، ثم ينادى مناد فيها: يا أيها الناس. فيقبل الناس بعضهم على بعض: هل سمعتم؟ فممنهم من يقول: نعم. ومنهم من يشك. ثم ينادى الثانية: يا أيها الناس. فيقول الناس: فيقول الناس بعضهم لبعض: هل سمعتم؟ فيقولون: نعم. ثم ينادى الثالثة: يا أيها الناس، أتى أمر الله فلا تستعجلوه». قال رسول الله ﷺ: «هو الذي نفسى بيده، إن الرجلين لينشران الثوب فما يطويانه أبداً ، وإن الرجل ليمدح حوضه فما يسقى فيه شيئاً أبداً، وإن الرجل ليحلب ناقته فما يشربه أبداً - قال - ويشغل الناس (١)».

ثم إنه تعالى نزه نفسه عن شركهم به غيره، وعبادتهم معه ما سواه من الأوثان والأنداد، تعالى وتقدس علواً كبيراً، وهؤلاء هم المكذبون بالساعة، قال: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ .

﴿يُنزِلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ ﴿٢﴾

يقول تعالى: ﴿يُنزِلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ﴾ أى: الوحي كقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

وقوله: ﴿عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ وهم الأنبياء، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤] ، وقال: ﴿اللَّهُ يَخْفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥] ، وقال: ﴿يَلْقَى الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ. يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٥، ١٦]

وقوله: ﴿أَنْ أَنْذِرُوا﴾ أى: لينذروا ﴿أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ أى: فاتقوا عقوبتى لمن خالف امرى

(١) رواه الحاكم فى المستدرک (٤/٥٣٩) بنحوه ، وقال : « صحیح الإسناد على شرط مسلم ولم يخرجاه » .

وعبد غيري .

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴾ ﴿١﴾

يخبر تعالى عن خلقه العالم العلوي وهو السموات، والعالم السفلي وهو الأرض بما حوت، وأن ذلك مخلوق بالحق لا للعبث، بل ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَقِّ ﴾ [النجم: ٣١] .

ثم نزه نفسه عن شرك من عبد معه غيره ، وهو المستقل بالخلق وحده لا شريك له، فلهذا يستحق أن يعبد وحده لا شريك له. ثم نبه على خلق جنس الإنسان ﴿ مِنْ نُطْفَةٍ ﴾ أى: ضعيفة مهينة، فلما استقل ودرج إذا هو يخاصم ربه تعالى ويكذبه، ويحارب رسله، وهو إما خلق ليكون عبداً لا ضدًا، كما قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا . وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥٤ ، ٥٥] ، وقال: ﴿ أَرَأَيْتُمْ يَوْمَ خَلَقْنَا مِنَ نُطْفَةٍ لِبَشَرٍ خَصِيمٌ مُبِينٌ . وَضَرَبْنَا لَهَا صُلْبًا وَنَسَبًا وَخَلَقْنَا لَهُ مِنْ نَفْسِهِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَئِيمٌ . قُلْ بَشِيرًا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس: ٧٧ - ٧٩] . وفى الحديث الذى رواه الإمام أحمد وابن ماجه عن بسر بن جعاش قال: بصر رسول الله فى كفه، ثم قال: يقول الله: ابن آدم، أنى تعجزنى وقد خلقتك من مثل هذه، حتى إذا سويتك فعدلتك مشيت بين يديك وللأرض منك وئيد، فجمعت ومنعت، حتى إذا بلغت الخلقوم قلت: أتصدق. وأنى أوان الصدقة ؟ ؟ (١) .

﴿ وَالْأَنْعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾ ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بِلَيْفِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ ﴿٢﴾

يمتد تعالى على عبادته بما خلق لهم من الأنعام، وهى الإبل والبقر والغنم، وبما جعل لهم فيها من المصالح والمنافع، من أصوافها وأوبراها وأشعارها يلبسون ويفترشون، ومن ألبانها يشربون، ويأكلون من أولادها، وما لهم فيها من الجمال وهو الزينة، ولهذا قال: ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ ﴾ وهو وقت رجوعها عشياً من الرعى ، فإنها تكون أمثلة خواصر، وأعظمه ضروعاً، وأعلاء استمة، ﴿ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾ أى: غلوة حين تبعثونها إلى الرعى ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ ﴾ وهى الاحمال المثقلة التى تعجزون عن نقلها وحملها ﴿ إِلَىٰ بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بِاللَّهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ ﴾ وذلك فى الحج والعمرة والغزو والتجارة، وما جرى مجرى ذلك، تستعملونها فى أنواع الاستعمال، من ركوب وتحميل، كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسَبِّحُكُمْ بِمَا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ . وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾ [المنون: ٢١ ، ٢٢] ، وقال تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ . وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِكُنَّهَا عَلَيْهَا حَاجَةٌ فِي صُنُوفِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ . وَبِرَبِّكُمْ آيَاتٌ قَالِي آيَاتِ اللَّهِ تُكْرَهُونَ ﴾ [غافر: ٧٩ - ٨١] ؛ ولهذا قال هاهنا بعد تعداد هذه النعم: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ أى: ربكم الذى قبض لكم هذه

(١) المسند (٤/ ٢١٠) ، وابن ماجه (٢٧٠٧) وفى الزوائد : إسناده صحيح .

الانعام وسخرها لكم، كما قال: ﴿ أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ . وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ [يس: ٧١، ٧٢]، وقال: ﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ مِنْهَا الْأَنْعَامَ مَا تَرْكَبُونَ . لَسْتُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ يُحْمَلُونَ . وَإِنِ اسْتَوْسَمْتُمْ عَلَيْهِ تَفْوَرُوا وَتَقُولُوا سِحْرٌ لَّنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ . وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴾ [الزخرف: ١٢ - ١٤]

قال ابن عباس: ﴿ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ ﴾ أى: ثياب، والمنافع: ما تنتفعون به من الأطعمة والأشربة. وقال مجاهد: ﴿ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ ﴾ قال: لباس ينسج، ومنافع تُركبُ، ولحم ولين. وقال قتادة: ﴿ دِفْءٌ وَمَنَافِعٌ ﴾ يقول: لكم فيها لباس، ومنفعة، وبلُغة. وكذا قال غير واحد من المفسرين، بالفاظ متقاربة.

﴿ وَالْحَيْلِ وَالْبِغَالِ وَالْحَمِيرِ لِرَّكُوبِهَا وَزِينَةٍ وَيَخْتَلِقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

هذا صنف آخر مما خلق تبارك وتعالى لعباده، يمتن به عليهم، وهو: الحيل والبغال والحمير، التي جعلها للركوب والزينة بها، وذلك أكبر المقاصد منها، ولما فصلها من الانعام وأفردها بالذكر استدلت من استدلت من العلماء - ممن ذهب إلى تحريم لحوم الخيل - بذلك على ما ذهب إليه فيها، كالإمام أبى حنيفة، رحمه الله، ومن وافقه من الفقهاء؛ لأنه تعالى قرنها بالبغال والحمير، وهي حرام. ولكن لا يقاوم ما ثبت في الصحيحين، عن جابر بن عبد الله قال: نهى رسول الله ﷺ عن لحوم الحمير الأهلية، وأذن في لحوم الخيل (١). ورواه أحمد وأبو داود بإسنادين، كل منهما على شرط مسلم، عن جابر قال: ذبحنا يوم خيبر الخيل والبغال والحمير، فهانا رسول الله ﷺ عن البغال والحمير، ولم ينهنا عن الخيل (٢). وفي صحيح مسلم، عن أسماء بنت أبى بكر، رضى الله عنهما، قالت: نحرنا على عهد رسول الله ﷺ فرما فأكلناه ونحن بالمدينة (٣). فهذه أدل وأقوى وأثبت، وإلى ذلك صار جمهور العلماء: مالك والشافعي وأحمد وأصحابهم، وأكثر السلف والخلف، والله اعلم.

﴿ وَعَلَىٰ اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَايِزٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

لما ذكر في هذه السورة الحيوانات من الانعام وغيرها، التي يركبونها ويبلغون عليها حاجة في صدورهم، وتحمل أثقالهم إلى البلاد والأماكن البعيدة والامسفار الشاق قد شرع في ذكر الطرق التي يسلكها الناس إليه، فبين أن الحق منها ما هي موصلة إليه، فقال: ﴿ وَعَلَىٰ اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ ﴾، كما قال: ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ [الانعام: ١٥٣]. قال مجاهد في قوله: ﴿ وَعَلَىٰ اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ ﴾: طريق الحق على الله، وقال السدى: الإسلام. وقول مجاهد أقوى؛ لأنه تعالى أخبر أن ثم طرقاً تسلك إليه، فليس يصل إليه منها إلا طريق الحق، وهي الطريق التي شرعها ورضيها وما عداها مسدودة، والأعمال فيها مردودة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ وَمِنْهَا جَائِزٌ ﴾ أى: حائد مائل زائغ عن الحق.

ثم أخبر أن ذلك كله كائن عن قدرته ومشيته، فقال: ﴿ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾، كما قال: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا ﴾ [يونس: ٩٩]، وقال: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يُزَالُونَ ﴾

(١) البخارى (٤٢١٩، ٥٥٢٤)، ومسلم (٣٦/١٩٤١).

(٢) المسند (٣/٣٥٦)، وأبو داود (٣٧٨٩)، وصححه الألبانى.

(٣) مسلم (٣٨/١٩٤٢).

مُخْتَلِفِينَ . إِلَّا مَنْ رُحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٨﴾ [هود: ١١٨، ١١٩].

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ لَكُمْ مِنْهُ شَرَابًا وَمِنْهُ شَجْرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١١٨﴾ يُثْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴿١١٩﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٢٠﴾﴾

لما ذكر سبحانه ما أنعم به عليهم من الأنعام والدواب، شرع في ذكر نعمته عليهم في إنزال المطر من السماء، مما لهم فيه بُلُغَةٌ ومتاع لهم ولأنعامهم، فقال: ﴿لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ﴾ أي: جعله عذبا راللا، يسوغ لكم شرايه، ولم يجعله ملحا اجاجا ﴿وَمِنْهُ شَجْرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ أي: وأخرج لكم به شجرا ترعون فيه أنعامكم. ومنه الإبل السائمة، والسوم: الرعى. وقوله: ﴿يُثْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ أي: يخرجها من الأرض بهذا الماء الواحد، على اختلاف صنوفها وطعومها والوانها وروائحها وأشكالها، ولها قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: دلالة وحجة على أنه لا إله إلا الله. ثم قال تعالى:

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِي إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُعْقِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَمَا ذَرَأْنَا لَكُمُ فِي الْأَرْضِ مَخْلِفًا لَوْلَا أَنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

ينه تعالى عبادته على آياته العظام، ومنته الجسم، في تسخيره الليل والنهار يتعاقبان، والشمس والقمر يدوران، والنجوم الثوابت والسيارات في أرجاء السموات نورا وضياء للمهتدين بها في الظلمات، وكل منها يسير في فلكه الذي جعله الله تعالى فيه، يسير بحركة مُقَدَّرَةٌ، لا يزيد عليها ولا ينقص منها، والجميع تحت قهره وسلطانه وتسخيره وتقديره وتسييره، كما قال: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حِينًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾﴾ [الاعراف: ٥٤]؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُعْقِلُونَ﴾ أي: للدلالات على قدرته الباهرة وسلطانه العظيم، لقوم يعقلون عن الله ويفهمون حججه.

وقوله: ﴿وَمَا ذَرَأْنَا لَكُمُ فِي الْأَرْضِ مَخْلِفًا لَوْلَا أَنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي: الله ونعمه فيكونونها.

﴿هُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلًا حَلِيَّةً تُبْسِئُونَهَا وَيَتَرَى الْفُلُكُ مَوَاجِرَ فِيهِ وَرَلْتَقُوا مِنْ فَوْقِهِ وَتَسْتَفْتُونَ مِنْ قَدْحِهِ ﴿١٢٣﴾ وَاللَّهُ يَذَّكَّرُ عَنْ أُمَّةٍ أُمَّةً وَأُمَّةً لِيُعَذِّبَهُنَّ وَاللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٤﴾﴾

يخبر تعالى عن تسخيره البحر للتلاطم الامواج، ويمت على عبادته بتذليله لهم، وتيسيرهم للركوب فيه، وجعله السمك والحيتان فيه، وإحلاله لعباده لحمها حيها وميتها، في الحل والإحرام، وما يخلقه فيه من اللآلئ والجواهر النفيسة، وتسهيله للعباد استخراجها من قرارها حلية يلبسونها، وتسخيره البحر

لحمل السفن التي تمخره ، أى : تشقه ، بجوجتها وهو صدرها المسم - الذى أرشد العباد إلى صنعتها، وهداهم إلى ذلك، إرثا عن أبيهم نوح ، عليه السلام - ﴿ وَانْتَفَخُوا مِنْ فُضَيْلِهِ وَأَمْلَكُمْ تُشْكُرُونَ ﴾ أى : نعمه وإحسانه. ثم ذكر تعالى الأرض، وما جعل فيها من الرواسى الشامخات والجبال الراسيات، لتقر الأرض ولا تميد، أى : تضطرب بما عليها من الحيوان فلا يهتا لهم عيش بسبب ذلك؛ ولهذا قال: ﴿ وَالْجِبَالُ أَرْسَاهَا ﴾ [التارعات: ٣٢].

وقوله: ﴿ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا ﴾ أى : وجعل فيها أنهاراً تجري من مكان إلى مكان آخر، رزقاً للعباد، ينبع فى موضع وهو رزق لاهل موضع آخر، فيقطع البقاع والبرارى والقفار، ويخترق الجبال والأكام، فيصل إلى البلد الذى سخر لاهله. وهى سائرة فى الأرض بمئة ويسرة، وجنوباً وشمالاً، وشرقاً وغرباً، ما بين صغار وكبار، وأودية تجري حيناً وتقطع فى وقت، وما بين نبع وجمع، وقوى السير وبطيئه، بحسب ما اراد وقدر، وسخر ويسر فلا إله إلا هو، ولا رب سواه. وكذلك جعل فى الأرض سبلاً، أى : طرقاً يسلك فيها من بلاد إلى بلاد، حتى إنه تعالى ليقطع الجبل حتى يكون ما بينهما ممراً وسلكاً، كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا ﴾ [الانبيا: ٣١]. وقوله: ﴿ وَعَلَامَاتٍ ﴾ أى : دلائل من جبال كبار وأكام صغار، ونحو ذلك، يستدل بها المسافرون برأً وبحراً إذا ضلوا الطريق ﴿ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ أى : فى ظلام الليل، قاله ابن عباس. ثم قال تعالى منها على عظمتها، وأنه لا تنبى العبادة إلا له دون ما سواه من الأوثان، التى لا تخلق شيئاً بل هم يخلقون؛ ولهذا قال: ﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ .

ثم نبههم على كثرة نعمه عليهم وإحسانه إليهم، فقال: ﴿ وَإِنْ تَدْعُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنْ اللَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ أى : يتجاوز عنكم، ولو طالبكم بشكر جميع نعمه لعجزتم عن القيام بذلك، ولو أمركم به لضعفتم وتركتم، ولو عذبكم لعذبكم وهو غير ظالم لكم، ولكنه غفور رحيم، يغفر الكثير، ويجازى على اليسير. وقال ابن جرير: يقول: ﴿ إِنْ اللَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ لما كان منكم من تقصير فى شكر بعض ذلك، إذا تبتم وأنبتم إلى طاعته واتباع مرضاته ﴿ رَحِيمٌ ﴾ بكم أن يعذبكم بعد الإنابة والتوبة .

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُوكُمْ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩٦﴾
﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ ﴿١٩٧﴾

يخبر تعالى أنه يعلم الضمائر والسرائر كما يعلم الظواهر، وسيجزى كل عامل بعمله يوم القيامة، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر ، ثم أخبر أن الأصنام التى يدعونها من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ، كما قال الخليل: ﴿ اتَّبِعُونَ مَا تَحْتَجُونَ . وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصفات : ٩٥ ، ٩٦] . وقوله : ﴿ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ ﴾ أى : هى جمادات لا أرواح فيها ، فلا تسمع ولا تبصر ولا تعقل ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ أى : لا يدرون متى تكون الساعة، فكيف يرغى عند هذه نفع أو ثواب أو جزاء؟ إنما يرغى ذلك من الذى يعلم كل شىء، وهو خالق كل شىء .

﴿إِنَّهُمْ كَرِهُوا اللَّهَ وَإِنَّهُمْ كَرِهُوا يَوْمَئِذٍ أَنْ يُسْمِعَهُمْ يَوْمَئِذٍ قُلُوبَهُمْ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسْرُوكُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُمْ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿١٩٨﴾

يخبر تعالى أنه لا إله إلا هو الواحد الاحد الفرد الصمد، وأخبر أن الكافرين تُنكر قلوبهم ذلك،

كما أخبر عنهم متعجبين من ذلك: ﴿ أَجْعَلُ الْآلِهَةَ إِنهًا وَاحِدًا إِن هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص: ٥] ، وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُرُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن فِئَتِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الزمر: ٤٥] . وقوله: ﴿ وَهَمُّ مُسْتَكْبِرُونَ ﴾ أى: عن عبادة الله مع إنكار قلوبهم لتوحيده، كما قال: ﴿ إِن الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَن عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر: ٦٠]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿ لَا جَرَمَ ﴾ أى: حقاً ﴿ أَنَّهُ لَآ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَعْلَمُ مَا يَسْرُونَ وَمَا يَخْلُونَ ﴾ أى: وسيجزئهم على ذلك أتم الجزاء، ﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾ .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَآذَا أُنزِلَ رِجْكَ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِن أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلِيسَاءَ مَا يَزُرُونَ ﴾ ﴿

يقول تعالى: وإذا قيل لهؤلاء المكذبين: ﴿ مَآذَا أُنزِلَ رِجْكَ قَالُوا ﴾ معرضين عن الجواب: ﴿ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أى: لم ينزل شيئاً، إنما هذا الذى يتلى علينا أساطير الاولين، أى: مأخوذ من كتب المتقدمين، كما قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصْلًا ﴾ [الفرقان: ٥] أى: يفترون على الرسول، ويقولون فيه أقوالاً مختلفة متضادة، كلها باطلة، كما قال تعالى: ﴿ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ﴾ [الفرقان: ٩]، وذلك أن كل من خرج عن الحق فهما قال خطأ .

قال الله تعالى: ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِن أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ أى: إنما قدرنا عليهم أن يقولوا ذلك فيتحملوا أوزارهم ومن أوزار الذين يتبعونهم ويوافقونهم، أى: يصير عليهم خطيئة ضلالهم فى أنفسهم، وخطيئة إغوائهم لغيرهم واقتداء أولئك بهم، كما جاء فى الحديث: «من دعا إلى ضلالة كان هدى كان له من الأجر مثل أجر من اتبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل إثم من اتبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً» (١) . وقال مجاهد: يحملون أفعالهم: ذنوبهم وذنوب من أطاعهم، ولا يخفف عن أطاعهم من العذاب شيئاً .

﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَآتَى اللَّهُ بُيُوتَهُم مِّنَ الْفَوَاعِيدِ فَحَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَنْتَهُمُ الْعَذَابُ مِمَّنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ ﴿ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآئِكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشْفِقُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ ﴿

قال ابن عباس فى قوله: ﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ قال: هو حمود الذى بنى الصرح . وقال آخرون: بل هو بختنصر . وقال آخرون: هنا من باب المثل، لإبطال ما صنعه هؤلاء الذين كفروا بالله وأشركوا فى عبادته غيره، كما قال نوح، عليه السلام: ﴿ وَمَكُرُوا مَكْرًا كَبِيرًا ﴾ [نوح: ٢٢] أى: احتالوا فى إضلال الناس بكل حيلة وأمالوهم إلى شركهم بكل وسيلة، كما يقول لهم اتباعهم يوم القيامة: ﴿ هَلْ مَكْرَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا ﴾ الآية [س: ٢٣] .

وقوله: ﴿ فَآتَى اللَّهُ بُيُوتَهُم مِّنَ الْفَوَاعِيدِ ﴾ أى: اجتهت من أصله، وأبطل عملهم، كما قال تعالى: ﴿ كَلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ ﴾ [المائدة: ٦٤] ، وقوله: ﴿ فَآتَاهُمُ اللَّهُ مِمَّنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرَّعْبَ ﴾

يُخْرَبُونَ بِيُونَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاتَعَبُوا بِأُولَى الْأُنْصَارِ ﴿ الحشر: ٢ ﴾ ، وقال هاهنا: ﴿ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوَقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْمَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ. ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِبُهُمْ ﴾ أى: يظهر فضائحهم، وما كانت تُجَنِّهُ ضمائرهم، فيجعله علانية، كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَبْلَى السَّرَائِرُ ﴾ [الطارق: ٩] أى: تظهر وتشتهر، كما فى الصحيحين عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة عند استه بقدر غدرته، فيقال: هذه غدرة فلان بن فلان» (١). وهكذا هؤلاء، يظهر للناس ما كانوا يسرونه من المكر، ويخزيهم الله على رؤوس الخلائق، ويقول لهم الرب تبارك وتعالى مفرعا لهم وموبخا: ﴿ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَشَاقِقُونَ فِيهِمْ ﴾: تحاربون وتعادون فى سبيلهم، أين هم عن نصركم وخلاصكم هاهنا؟ ﴿ هَلْ يَنْصُرُونَكُم أَوْ يَنْصُرُونَ ﴾ [الشراء: ٩٣] ، ﴿ فَمَا لَهُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴾ [الطارق: ١٠]. فإذا توجهت عليهم الحجة، وقامت عليهم الدلالة، وحقت عليهم الكلمة، وأسكتوا عن الاعتذار حين لا فرار ﴿ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ وهم السادة فى الدنيا والآخرة، والمخبرون عن الحق فى الدنيا والآخرة، فيقولون حينئذ: ﴿إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أى: الفضيحة والعذاب اليوم بمن كفر بالله، وأشرك به ما لا يضره ولا ينفعه.

﴿ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْفَوْا سَلْتَهُمْ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿ فَاَدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبَلِيسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ ﴿

يخبر تعالى عن حال الشركين الظالمى انفسهم عند احتضارهم ومجره الملائكة إليهم لقبض ارواحهم: ﴿ فَأَلْفَوْا السَّلْمَ ﴾ أى: اظهروا السمع والطاعة والانقياد قائلين: ﴿ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ ﴾، كما يقولون يوم الماد: ﴿ وَاللَّهُ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الانعام: ٢٣] ، ﴿ يَوْمَ يَجْتَهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ﴾ [المجادلة: ١٨]

قال الله مكذبا لهم فى قيلهم ذلك: ﴿ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ. فَاَدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبَلِيسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ أى: بشس القليل والمقام والمكان من دار هوان، لمن كان متكبرا عن آيات الله واتباع رسله. وهم يدخلون جهنم من يوم ممانهم بأرواحهم، ويأتى أجسادهم فى قبورها من حرها وسمومها، فإذا كان يوم القيامة سلكت أرواحهم فى أجسادهم، وخلدت فى نار جهنم ﴿ لَا يُلْقَى عَلَيْهِمْ قِيمَتُهُمْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا ﴾ [فاطر: ٣٦] ، كما قال الله تعالى: ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ [غافر: ٤٦].

﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرٌ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَمِيزُ اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمْ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُوكَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ﴿

هذا خير عن السعداء، بخلاف ما اخبر به عن الأشقياء، فإن أولئك قيل لهم: ﴿ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ ﴾، فقالوا معرضين عن الجواب: لم ينزل شيئا، إنما هذا أساطير الاولين. وهؤلاء ﴿ قَالُوا خَيْرًا ﴾ أى: انزل

خيرا، أى: رحمة وبركة وحسنا لمن اتبعه وآمن به. ثم أخبروا عما وعد الله عباده فيما أنزله على رسوله فقالوا: ﴿ الَّذِينَ أَحْسَبُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ ﴾ ، كما قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْفَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهَ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧] ، أى: من أحسن عمله فى الدنيا أحسن الله إليه فى الدنيا والآخرة. ثم أخبروا بأن دار الآخرة خير، أى: من الحياة الدنيا، والجزء فيها أتم من الجزء فى الدنيا، كما قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ فُؤَابَ اللَّهِ خَيْرٌ ﴾ [التقصص: ٨٠] وقال تعالى: ﴿ وَمَا عِدَّةَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ﴾ [آل عمران: ١٩٨] وقال تعالى ﴿ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَثَمُنٌ ﴾ [الاعلى: ١٧] ، وقال لرسوله ﷺ: ﴿ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى ﴾ [الضحى: ٤] . ثم وصفوا الدار الآخرة فقالوا: ﴿ وَتِلْكَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴾ .

وقوله: ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ ﴾ بدل من ﴿ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴾ أى: لهم فى الآخرة ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ ﴾ أى: إقامة يدخلونها ﴿ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ أى: بين أشجارها وقصورها ﴿ تَهْمُ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ ﴾ كما قال تعالى: ﴿ وَفِيهَا مَا نَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [الزخرف: ٧١] ، ﴿ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴾ أى: كذلك يجزى الله كل من آمن به واتقاه وأحسن عمله. ثم أخبر تعالى عن حالهم عند الاحتضار ، أنهم طيبون، أى: مخلصون من الشرك والندس وكل سوء، وأن الملائكة تسلم عليهم وتبشرهم بالجنة ، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَوْا نَنْزِلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت: ٣٠] .

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَصَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا يَبْهَمُونَ ﴾

يقول تعالى مهتداً للمشركين على عمادتهم فى الباطل واغترارهم بالدنيا: هل يتنظر هؤلاء إلا الملائكة أن تأتيهم بقبض أرواحهم ﴿ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ ﴾ أى: يوم القيامة وما يعاينونه من الأحوال. وقوله: ﴿ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أى: هكذا عمادى فى شركهم أسلافهم ونظراؤهم وأشباههم من المشركين حتى ذاقوا بأس الله، وحلوا فيما هم فيه من العذاب والنكال ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ ﴾ ؛ لأنه تعالى أعذر إليهم، وأقام حججه عليهم بإرسال رسله وإنزال كتبه ﴿ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ أى: بمخالفة الرسل والتكذيب بما جاؤوا به، فلهذا أصابتهم عقوبة الله على ذلك، ﴿ وَصَاقَ بِهِمْ ﴾ أى: احاط بهم من العذاب الاليم ﴿ مَا كَانُوا يَبْهَمُونَ ﴾ أى: يسخرون من الرسل إذا توعدوهم بعقاب الله؛ فلهذا يقال يوم القيامة: ﴿ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ [الطور: ١٤] .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ يَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَحْسَبُوا الظَّالِمِينَ ﴾ ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَبِئْسَ مَا فِي الْأَرْضِ فَنَظَرُوا كَيْفَ كَانَتْ عِقَابُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ ﴿ إِنْ تَحْرُصْ عَلَى هُدْيَتِهِمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي

مَنْ يُضِلَّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٣٥﴾

بخير تعالى عن اغترار المشركين بما هم فيه من الشرك واعتذارهم محتجين بالقدر، في قولهم : ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمًا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي : من البحائر والسوائب والوسائل وغير ذلك، بما كانوا ابتدعوه واخترعوه من تلقاء أنفسهم، ما لم ينزل الله به سلطانا .

ومضمون كلامهم : أنه لو كان تعالى كارهاً لما فعلنا، لأنكره علينا بالعقوبة ولما مكنا منه . قال الله راداً عليهم شبهتهم : ﴿فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ ؟ أي : ليس الأمر كما تزعمون أنه لم يعيره عليكم ولم ينكره، بل قد أنكره عليكم أشد الإنكار، ونهاكم عنه أكد النهي، وبعث في كل أمة رسولا، أي : في كل قرن من الناس وطائفة رسولا، وكلهم يدعو إلى عبادة الله، وينهى عن عبادة ما سواه : ﴿أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ ، فلم يزل تعالى يرسل إلى الناس الرسل بذلك، منذ حدث الشرك في بني آدم، في قوم نوح الذين أرسل إليهم نوح، وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض إلى أن ختمهم بمحمد ﷺ الذي طبقت دعوته الإنس والجن في المشارق والمغارب، وكلهم كما قال الله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُولٍ إِلَّا نُوْحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء : ٢٥] ، وقال تعالى : ﴿وَأَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف : ٢٥] ، وقال تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رُسُلًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ ، فكيف يسوغ لأحد من المشركين بعد هذا أن يقول : ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ ، فمشيئته تعالى الشرعية متفية ؛ لأنه نهاهم عن ذلك على السنة رسله، وأما مشيئته الكونية، وهي تمكينهم من ذلك قدرا، فلا حجة لهم فيها ؛ لأنه تعالى خلق النار وأهلها من الشياطين والكفرة، وهو لا يرضى لعباده الكفر، وله في ذلك حجة بالغة وحكمة قاطعة .

ثم إنه تعالى قد أخبر أنه عبر عليهم، وأنكر عليهم بالعقوبة في الدنيا بعد إنذار الرسل؛ فلماذا قال : ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسَبَرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ أي : اسألوا عما كان من أمر من خالف الرسل وكذب الحق كيف ﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ [محمد : ١٠] ، ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الملك : ١٨] . ثم أخبر تعالى رسوله ﷺ أن حرصه على هدايتهم لا ينفعهم، إذا كان الله قد أراد إضلالهم، كما قال تعالى : ﴿وَمَنْ يَرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [المائدة : ٤١] ، وقال نوح لقومه : ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا نَصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُنصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود : ٣٤] ، وقال في هذه الآية الكريمة : ﴿إِنْ تَحَرَّمْ عَلَى فِدَائِهِمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿مَنْ يُضِلَّ اللَّهُ فَمَا هَادِي لَهُ وَيَهْدِهِمْ فِي طُغْيَانِهِمْ بِمُحْمَدٍ﴾ [الاعراف : ١٨٦] ، وقال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس : ٩٦ ، ٩٧] .

فقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ أي : شأنه وأمره أنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن؛ فلماذا قال : ﴿لَا يُهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ أي : من أضله فمن الذي يهديه من بعد الله ؟ أي : لا أحد ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ أي : يتقدرونهم من عذابه ووثاقه ، ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الاعراف : ٥٤] .

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مِنْ يَمُوتَ بَلَى وَوَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَلَئِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿لَيْسَ لَهُمْ الَّذِي يَخْتَفُونَ فِيهِ وَلَيَعْلَمَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا

لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْتَهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٣٨﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين: أنهم حلفوا فاقسموا ﴿بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أى: اجتهدوا فى الحلف وغلظوا الأيمان على أنه ﴿لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾ أى: استبعدوا ذلك، فكذبوا الرسل فى إخبارهم لهم بذلك، وحلفوا على نقيضه، فقال تعالى مكذباً لهم وراداً عليهم: ﴿بَلَىٰ سَيَكُونُ ذَلِكَ وَعَدَاً عَلَيْهِ حَقًّا﴾ أى: لا بد منه ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أى: فليجلبهم يخالفون الرسل ويقعون فى الكفر. ثم ذكر تعالى حكمته فى المعاد وقيام الأجساد يوم التناد، فقال: ﴿لَيْسَ لَكُمْ﴾ أى: للناس ﴿الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ أى: من كل شيء ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ أى: فى أيمانهم وأقسامهم: لا يبعث الله من يموت، ولهذا يدعوون يوم القيامة إلى نار جهنم دعا، ويقول لهم الزانية: ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تَكْذِبُونَ﴾ [الطور: ١٤].

ثم أخبر تعالى عن قدرته على ما يشاء، وأنه لا يعجزه شيء فى الأرض ولا فى السماء، وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له: «كن»، فيكون، والمعاد من ذلك إذا أراد كونه فإنما يأمر به مرة واحدة، فيكون كما يشاء، كما قال: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القم: ٥٠]، وقال فى هذه الآية الكريمة: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠] أى: أن يأمر به دفعة واحدة فإذا هو كائن، أى: أنه تعالى لا يحتاج إلى تأكيد فيما يأمر به، فإنه تعالى لا يمانع ولا يخالف، لأنه الواحد القهار العظيم، الذى قهر سلطانه وجبروته وعزته كل شيء، فلا إله إلا هو ولا رب سواه.

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَنبُوَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَا نَجْزِي الْآخِرَةَ أَكْبَرَ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ] ﴿٣٩﴾

يخبر تعالى عن جزائه للمهاجرين فى سبيله ابتغاء مرضاته، الذين فارقوا الدار والإخوان والحلان، رجاء ثواب الله وجزائه. ويحتمل أن يكون سبب نزول هذه الآية الكريمة فى مهاجرة الحبشة الذين اشتد أذى قومهم لهم بمكة، حتى خرجوا من بين أظهرهم إلى بلاد الحبشة، ليتمكنوا من عبادة ربهم. وقد فعل فوعدهم تعالى بالمجازاة الحسنة فى الدنيا والآخرة فقال: ﴿لَنَبُوَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ قال ابن عباس: المدينة. وقيل: الرزق الطيب، قاله مجاهد. ولا منافاة بين القولين، فإنهم تركوا مساكنهم وأموالهم فمروضهم الله خيراً منها فى الدنيا، فإن من ترك شيئاً لله عوضه الله بما هو خير له منه، وكذلك وقع فإنهم مكن الله لهم فى البلاد وحكمهم على رقاب العباد، فصاروا أمراء حكاماً، وكل منهم للمتقين إماماً، وأخبر أن ثوابه للمهاجرين فى الدار الآخرة أعظم مما أعطاهم فى الدنيا، فقال: ﴿وَلَا نَجْزِي الْآخِرَةَ أَكْبَرَ﴾ أى: ما أعطيناكم فى الدنيا ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أى: لو كان المتخلفون عن الهجرة معهم يعلمون ما ادخر الله لمن أطاعه واتبع رسوله، ولهذا كان عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، إذا أعطى الرجل من المهاجرين عطاءه يقول: خذ، بارك الله لك فيه، هذا ما وعدك الله فى الدنيا، وما ادخر لك فى الآخرة أفضل، ثم قرأ هذه الآية: ﴿لَنَبُوَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَا نَجْزِي الْآخِرَةَ أَكْبَرَ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

ثم وصفهم تعالى فقال: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أى: صبروا على أذى من آذاهم من

قومهم، متوكلين على الله الذي أحسن لهم العاقبة في الدنيا والآخرة.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَتَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِاللَّيْسَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾

قال ابن عباس: لما بعث الله محمداً ﷺ رسولاً، أنكرت العرب ذلك، أو من أنكر منهم، وقالوا: الله اعظم من أن يكون رسوله بشراً، فانزل الله: ﴿أَكُنَّ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ﴾ [يونس: ٢٢] ، وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ يعني: أهل الكتب الماضية: ابشر كانت الرسل التي أتتكم أم ملائكة؟ فإن كانوا ملائكة أنكرتم، وإن كانوا بشراً فلا تنكروا أن يكون محمد ﷺ رسولاً؟ وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ [يوسف: ١٠٩] ، ليسوا من أهل السماء كما قلتم. وعن ابن عباس، أن المراد بأهل الذكر: أهل الكتاب. والغرض: أن هذه الآية الكريمة أخبرت أن الرسل الماضين قبل محمد ﷺ كانوا بشراً كما هو بشر، كما قال تعالى: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا. وَمَا مَتَّعْنَا إِلَّا أُمَّةً نَارًا إِذْ جَاءَهُمْ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٣، ٩٤] وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨، ٩]، وقال: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الاحقاف: ٩]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠].

ثم أرشد الله تعالى من شك في كون الرسل كانوا بشراً، إلى سؤال أصحاب الكتب المتقدمة عن الأنبياء الذين سلفوا: هل كان أنبياءهم بشراً أو ملائكة؟ ثم ذكر تعالى أنه أرسلهم ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: بالدلالات والحجج ﴿وَالزُّبُرِ﴾ وهي الكتب. قاله ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وغيرهم. والزبور: جمع زبور، تقول العرب: زبرت الكتاب إذا كتبته، وقال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعْلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ [القصص: ٥٢]، وقال: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرْثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]. ثم قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾ يعني: القرآن ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ من ربهم، أي: لعلمك بمعنى ما أنزل عليك، وحرصك عليه، واتباعك له، لعلنا بأنك أفضل الخلائق وسيد ولد آدم، فنفضل لهم ما أجمل، وتبين لهم ما أشكل ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: ينظرون لأنفسهم فيهدتدون، فيفودون بالنجاة في الدارين.

﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ فِي تَقْلِبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾

يخبر تعالى عن حلمه وإنظاره العصاة الذين يعملون السيئات ويدعون إليها، ويمكرون بالناس في دعائهم إياهم وحملهم عليها، مع قدرته على ﴿أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: من حيث لا يعلمون مجيئه إليهم، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ السَّمَاءَ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ إِذَا هِيَ تَمُورُ. أَمْ أَنْتُمْ مِنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَلْمُونَ كَيْفَ تُذَبَّرُونَ﴾ [الملك: ١٦، ١٧].

وقوله: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ﴾ أي: في تقلبهم في المعاش واشتغالهم بها، من أسفار ونحوها

ثم اخبر أنه مالك النفع والضر، وأن ما بالعبد من رزق، ونعمة وعافية ونصر فمن فضله عليه ، وإحسانه إليه ، ﴿ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِنَّهٗ يُجَارُونَ ﴾ أى : لعلمكم أنه لا يقدر على إزالته إلا هو، فإنكم عند الضرورات تلجؤون إليه، وتسالونه وتلحون فى الرغبة مستغيثين به ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ ائْتَوْا بِهِمْ وَإِلَى الشَّرِّ أَنتَوَّاتُونَ ﴾ [الإسراء: ٦٧] ، وقال هاهنا : ﴿ ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ ﴾ قيل : «اللام» هاهنا لام العاقبة . وقيل : لام التعليل، بمعنى : قيضنا لهم ذلك ليكفروا ، أى : يستروا ويحمدوا نعم الله عليهم ، وأنه المسد إلىهم النعم، الكاشف عنهم النقم . ثم توعدهم قائلا : ﴿ فَصَبْرًا ﴾ أى : اعملوا ما شئتم وتمتعوا بما أنتم فيه قليلا ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ أى : عاقبة ذلك .

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَفْعَلُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللهُ لَشَدِيدُ عَمَّا كَتَبَ تَفَتَّرُونَ ﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيَسْكَبُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّ فِي التُّرَابِ إِلَّا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مِثْلُ النُّورِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿

بخبر تعالى عن قبائح المشركين الذين عبدوا مع الله غيره من الاصنام والاولئان والانداد، وجعلوا لها نصيبا مما رزقهم الله، فاقسم الله تعالى بنفسه الكريمة ليسانهم عن ذلك الذى افتروه، واتفكوه، وليقابلنهم عليه وليجازينهم أوفر الجزاء فى نار جهنم، فقال : ﴿ تَاللهِ لَشَدِيدُ عَمَّا كَتَبَ تَفَتَّرُونَ ﴾ . ثم اخبر تعالى عنهم أنهم جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا، وجعلوها بنات الله، وعبدوها معه، فاخطؤوا خطأ كبيرا فى كل مقام من هذه المقامات الثلاث، فنسبوا إليه تعالى أن له ولدا، ولا ولد له! ثم أعطوه أحسن القسمين من الاولاد وهو البنات، وهم لا يرضونها لانفسهم، كما قال : ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ تِلْكَ إِذًا سُمَّةٌ مُّؤْتَرَةٌ ﴾ [النجم: ٢١، ٢٢] وقال هاهنا : ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ ﴾ أى : عن قولهم وإفكهم، ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ مِّنْ أَفْكَهٍ يُقْفَلُونَ . وَلِلَّهِ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَيْنِ . مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ [الصافات: ١٥١-١٥٤] . وقوله : ﴿ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ أى : يختارون لانفسهم الذكور ويأنفون لانفسهم من البنات التى نسبوها إلى الله، تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا، فإنه ﴿ إِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا ﴾ أى : كئيبا من الهم ﴿ وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ ، ساكت من شدة ما هو فيه من الحزن ﴿ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ ﴾ أى : يكره أن يراه الناس ﴿ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيَسْكَبُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّ فِي التُّرَابِ ﴾ أى : إن أبقاها أبقاها مهانة لا يورثها، ولا يعتنى بها، ويفضل اولاده الذكور عليها ﴿ أَمْ يَدُسُّ فِي التُّرَابِ ﴾ أى : يتدها : وهو : أن يدفنها فيه حية، كما كانوا يصنعون فى الجاهلية، أفمن يكرهونه هذه الكراهة ويأنفون لانفسهم عنه يجعلونه لله ؟ ﴿ إِلَّا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أى : ينس ما قالوا، وينس ما قسموا، وينس ما نسبوا إليه، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [الزمر: ١٧] ، وقال هاهنا : ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مِثْلُ النُّورِ ﴾ أى : النقص إنما ينسب إليهم ﴿ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ ﴾ أى : الكمال المطلق من كل وجه، وهو منسوب إليه ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .

﴿ وَلَوْ يُرَاجِدُ اللهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَائِبَةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا

يَسْتَخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْقُدُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِمَا يُكْرَهُونَ وَنَصِفُ أَلْسِنَتَهُمُ الْكَذِبَ أَنْ لَهُمُ الْحَسَنُ لَا جَرَمَ أَنْ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾

يخبر تعالى عن حلمه بخلقه مع ظلمهم، وأنه لو يؤاخذهم بما كسبوا ما ترك على ظهر الأرض من دابة، أي: لاهلك جميع دواب الأرض تبعاً لإهلاك بنى آدم، ولكن الرب، جل جلاله، يحلم ويستر، وينظر ﴿إِنِ أَجْرُكُمْ سِئْتُمْ﴾ أي: لا يعاجلهم بالمعقوبة؛ إذ لو فعل ذلك بهم لما أبى أحداً.

وقوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا يُكْرَهُونَ﴾ أي: من البنات ومن الشركاء الذين هم عبيده، وهم يأنفون أن يكون عند أحدهم شريك له في ماله.

وقوله: ﴿وَنَصِفُ أَلْسِنَتَهُمُ الْكَذِبَ أَنْ لَهُمُ الْحَسَنُ﴾: إنكار عليهم في دعواهم مع ذلك أن لهم الحسن في الدنيا، وإن كان ثم معاد ففيه أيضاً لهم الحسن، وإخبار عن قيل من قال منهم، كقوله: ﴿وَلَمَّا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَكَفُورٌ. وَلَمَّا أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضِرَاءٍ مِّنْهُ لَيَقُولُنَّ زَهَبَ النَّبَاتُ مِنِّي إِنَّهُ لَنَرَجٍ فَخُورٌ﴾ [هود: ٩، ١٠]، وكقول: ﴿وَلَمَّا أَذَقْنَا رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضِرَاءٍ مِّنْهُ لَيَقُولُنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحَسَنَ فَلَنَبِيِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَتَلَذُّبْتَهُمْ مِنَ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [فصلت: ٥٠]، وقوله: ﴿الْمَرْءِ الَّذِي كَفَرَ بِآبَاتِهِ وَقَالَ لَأُوتِينَ مَالًا وَوَلَدًا. أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ [مريم: ٧٧، ٧٨] وقال إخباراً عن أحد الرجلين: أنه ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا. وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٥، ٣٦] - فجمع هؤلاء بين عمل السوء وتمنى الباطل، بأن يجاروا على ذلك حسناً وهذا مستحيل.

ولهذا قال الله تعالى رادا عليهم في تمهيمهم: ﴿لَا جَرَمَ﴾ أي: حقا لا بد منه ﴿أَنْ لَهُمُ النَّارُ﴾ أي: يوم القيامة ﴿وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ﴾. قال مجاهد، وسعيد بن جبيرة، وقادة وغيرهم: منيئون فيها مضيئون. وهذا كقوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نَسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ [الاعراف: ٥١]، وعن قتادة أيضاً: ﴿مُفْرَطُونَ﴾ أي: معجلون إلى النار، من الفرط وهو السابق إلى الورد ولا منافاة لأنهم يجعل بهم يوم القيامة إلى النار، وينسون فيها، أي: يخلدون.

﴿ثُمَّ قَالَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَرَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانَ أَعْمَلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿٦٣﴾ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾

يذكر تعالى أنه أرسل إلى الأمم الخالية رسلاً، فكذبت الرسل، فلك يا محمد في إخوانك من المرسلين أسوة، فلا يهينك تكذيب قومك لك، وأما المشركون الذين كذبوا الرسل، فإنما حملهم على ذلك تزيين الشيطان لهم ما فعلوه ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ﴾ أي: هم تحت المعقوبة والنكال، والشيطان وليهم، ولا يملك لهم خلاصاً، ولا صريح لهم، ولهم عذاب أليم.

ثم قال تعالى لرسوله: إنه إنما أنزل عليه الكتاب ليبين للناس الذي يختلفون فيه، فالقرآن فاصل بين الناس في كل ما يتنازعون فيه ﴿هُدًى﴾ أي: للقلوب ﴿وَرَحْمَةً﴾ أي: لمن تمسك به ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

وكما جعل تعالى القرآن حياة للقلوب الميتة بكفرها، كذلك يحيى الأرض بعد موتها بما ينزله عليها من السماء من ماء، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أى: يفهمون الكلام ومعناه.

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّتُنذِرُوا مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبِئْسَ خَالِصًا سَائِبًا لِلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ﴾ أيها الناس ﴿فِي الْأَنْعَامِ﴾ وهى: الإبل والبقر والغنم ﴿عِبْرَةً﴾ أى: لآية ودلالة على قدرة خالقها وحكمته ولطفه ورحمته ﴿تُنذِرُكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ﴾، وأقردها هاهنا الضمير عائداً على الحيوان؛ فإن الانعام حيوانات، أى: نسقيكم مما فى بطن هذا الحيوان. ﴿مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبِئْسَ خَالِصًا﴾ أى: يتخلص الدم بياضه وطعمه وحلاوته من بين فرث ودم فى باطن الحيوان، فيسرى كل إلى موطنه، إذا نضج الغذاء فى معدته تصرف منه دم إلى المروق، ولبن إلى الضرع، وبول إلى المثانة، وروث إلى المخرج، وكل منها لا يشوب الآخر ولا يمازجه بعد انفصاله عنه، ولا يتغير به، وقوله: ﴿لَبِئْسَ خَالِصًا سَائِبًا لِلشَّارِبِينَ﴾ أى: لا يخلص به أحد.

ولما ذكر اللبن وأنه تعالى جعله شراباً للناس سائغاً، نثى بذكر ما يتخذها الناس من الأشربة، من ثمرات النخيل والأعناب، وما كانوا يصنعون من النبيذ المسكر قبل تحريمه؛ ولهذا امتن به عليهم فقال: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾، قال ابن عباس فى قوله: ﴿سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾: السُّكْرُ: ما حرم من ثمرتيهما، والرزق الحسن ما أحل من ثمرتيهما ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾: ناسب ذكر العقل هاهنا، فإنه أشرف ما فى الإنسان؛ ولهذا حرم الله على هذه الأمة الأشربة المسكرة صيانة لعقولها، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ سبحانه الذي خلق الأزواج كلها مما نبتت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون ﴿يس: ٣٤-٣٦﴾.

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّخْلِ أَنْ اجْعَلِي مِنْ لِبْءَالِ يَوتَا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سَبِيلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾

المراد بالوحي هاهنا: الإلهام والهداية والإرشاد إلى النحل أن تتخذ من الجبال يوتا تأوى إليها، ومن الشجر، وما يعرشون. ثم هى محكمة فى غاية الإتقان فى تسديسها ورضعها، بحيث لا يكون بينها خلل.

ثم أذن لها تعالى إذنا قدرها تسخيرياً أن تأكل من كل الثمرات، وأن تسلك الطرق التى جعلها الله تعالى لها مذلة، أى: سهلة عليها حيث شاءت فى هذا الجو العظيم والبرارى الشاسعة، والأودية والجبال الشاهقة، ثم تعود كل واحدة منها إلى موضعها وبيتها، لا تحيد عنه بمئة ولا يسرة، بل إلى بيتها وما لها فيه من فراخ وعسل، فتبنى الشمع من اجنتحتها، وتقوى العسل من فيها، وتبيض الفراخ من دبرها، ثم تصبح إلى مراعيها. وقال قتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿فاسلُكِي سَبِيلَ رَبِّكِ

فَلَا، أَي: مطيعة. فجملناه حالا من السالكة. قال ابن زيد: وهو كقول الله تعالى: ﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٧٢] قال: ألا ترى أنهم ينقلون النحل من بيوتهم من بلد إلى بلد وهو يصحبهم. والقول الأول أظهر، وهو أنه حال من الطريق، أي: فاسلكيها مذلةً لك، نص عليه مجاهد. وقال ابن جرير: كلا القولين صحيح.

وقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾ أَي: ما بين أبيض وأصفر وأحمر وغير ذلك من الألوان الحسنة، على اختلاف مراعيها ومآكلها منها وقوله: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ أَي: في العسل شفاء للناس من أدواء تعرض لهم. قال بعض من تكلم على الطب النبوي: لو قال: «فيه الشفاء للناس» لكان دواء لكل داء، ولكن قال ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ أَي: يصلح لكل أحد من أدواء باردة، فإنه حار، والشىء يداوى بضده. والدليل على أن المراد بقوله تعالى: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ هو العسل - الحديث الذى رواه البخارى ومسلم في صحيحيهما عن أبى سعيد الخدرى، قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إن أختى استطلقت بطنه. فقال: «اسقه عسلا». فسقاها عسلا، ثم جاء فقال: يا رسول الله، سقيته عسلا فما زاده إلا استطلاقا! قال: «اذهب فاسقه عسلا». فذهب فسقاها، ثم جاء فقال: يا رسول الله، ما زاده إلا استطلاقا! فقال رسول الله ﷺ: «صدق الله، وكذب بطن أختك! اذهب فاسقه عسلا». فذهب فسقاها فبرئ^(١). قال بعض العلماء بالطب: كان هذا الرجل عنده فضلات، فلما سقاها عسلا وهو حار تحللت، فأسرعت في الاندفاع، فزاد إسهاله، فاعتقد الأعرابي أن هذا يضره وهو مصلحة لأخيه، ثم سقاها فازداد التحليل والدفع، ثم سقاها فكذلك، فلما اندفعت الفضلات الفاسدة المضرة بالبدن استمسك بطنه، وصلاح مزاجه، واندفعت الأسقام والألام ببركة إشارته، عليه من ربه أفضل الصلاة والسلام.

وفى الصحيحين عن عائشة، أن رسول الله ﷺ كان يعجبه الخلوة والعسل. هذا لفظ البخارى^(٢). وفى صحيح البخارى عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «الشفاء فى ثلاثة: فى شربة محجم، أو شربة عسل، أو كية بنار، وأنهى أمتى عن الكى»^(٣). وروى البخارى عن جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن كان فى شىء من أدويتكم، أو يكون فى شىء من أدويتكم خير: ففى شربة محجم، أو شربة عسل، أو لذعة بنار توافق الداء، وما أحب أن أكتوى». ورواه مسلم^(٤).

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أَي: إن فى إلهام الله لهذه الدواب الضعيفة الخلقة إلى السلوك فى هذه الهامة والاجتناء من سائر الشمار، ثم جمعها للشمع والعسل، وهو من أطيب الأشياء ﴿لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَذَكَّرُونَ﴾ فى عظمة خالقها ومقدرها ومسخرها وميسرها، فيستدلون بذلك على أنه القادر الحكيم العليم، الكريم الرحيم.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ فَمِنْ بَنُونِكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَيْكَ أَرْذَلِ الضَّمْرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ

قَدِيرٌ ﴿﴾

يخبر تعالى عن تصرفه فى عباده، وأنه هو الذى أنشأهم من العدم، ثم بعد ذلك يتوفاهم،

(٢) البخارى (٥٦٨٢)، ومسلم (٢١/١٤٧٤).

(١) البخارى (٥٧١٦)، ومسلم (٩١/٢٢١٧).

(٤) البخارى (٥٦٨٣)، ومسلم (٧١/٢٢٠٥).

(٣) البخارى (٥٦٨٠، ٥٦٨١).

ومنهم من يتركه حتى يدركه الهرم - وهو الضعف في الخلقة - كما قال الله تعالى : ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [الروم : ٥٤]. وقد روى عن علي، رضي الله عنه، في أرذل العمر : خمس وسبعون سنة. وفي هذا السن يحصل له ضعف القوى والخرف وسوء الحفظ وقلة العلم؛ ولهذا قال : ﴿لَكِنِّي لَا بَعْلَمُ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ أي : بعد ما كان عالماً أصبح لا يدري شيئاً من الفند والخرف ؛ ولهذا روى البخاري عند تفسير هذه الآية عن أنس بن مالك ؛ أن رسول الله ﷺ كان يدعو : « أعوذ بك من البخل والكلل، والهرم وأرذل العمر، وعذاب القبر، وقتنة الدجال، وفتنة المحيا والممات » . ورواه مسلم ^(١) .

﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِعِزَّةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾

يبين تعالى للمشركين جهلهم وكفرهم فيما زعموه لله من الشركاء، وهم يعترفون أنها عبيد له، فقال تعالى منكراً عليهم : إنكم لا ترضون أن تساوا عبيدكم فيما رزقناكم، فكيف يرضى هو تعالى بمساواة عبيده له في الإلهية والتعظيم ، كما قال في الآية الأخرى : ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ الآية [الروم : ٢٨]. قال ابن عباس في هذه الآية : لم يكونوا يشركوا عبيدهم في أموالهم ونسائهم، فكيف يشركون عبيدي معي في سلطاني، فذلك قوله : ﴿أَفَبِعِزَّةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ ، وقال في الرواية الأخرى، عنه : فكيف ترضون لي ما لا ترضون لأنفسكم . وقال قتادة : هذا مثل ضربه الله، فهل منكم من أحد شارك مملوكه في زوجته وفي فراشه، فتعدلون بالله خلقه وعباده؟ فإن لم ترض لأنفسك هذا ، فالله أحق أن يتزّه منك .

وقوله : ﴿أَفَبِعِزَّةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أي : إنهم جعلوا لله مما ذرأ من الخرش والانعام نصيباً، فجحدوا نعمته ، وأشركوا معه غيره .

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَيْنًا وَحَفْذَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾

يذكر تعالى نعمه على عبيده، بأن جعل لهم من أنفسهم أزواجاً من جنسهم وشكلهم ، ولو جعل الأزواج من نوع آخر لما حصل اتلاف ومودة ورحمة ، ولكن من رحمته خلق من بني آدم ذكوراً وإناثاً، وجعل الإناث أزواجاً للذكور .

ثم ذكر تعالى أنه جعل من الأزواج البنين والحفدة، وهم أولاد البنين . قاله ابن عباس، وعكرمة، والحسن، والضحاك، وابن زيد . قال ابن عباس : ﴿بنين وحفدة﴾ : هم الولد وولد الولد . وقال مجاهد : ابنه وخادمه . وقال في رواية : الحفدة : الأنصار والأعوان والخدام . وقال عكرمة : الحفدة : من خدَمَكَ من ولدك وولد ولدك . قال ابن جرير : وهذه الأقوال كلها داخلة في معنى : «الحفد» وهو الخدمة، ولما كانت الخدمة قد تكون من الأولاد والأصهار والخدام ، فالنعمة حاصلة بهذا كله ؛ ولهذا قال : ﴿وجعل

لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَيْنَ وَحَدَّةٍ ﴿١﴾ .

﴿وَرَزَقْنَاكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ : من المطاعم والمشارب. ثم قال تعالى منكراً على من أشرك فى عبادة المنعم غيره: ﴿الْغَيْبَاتِ طِبَّاطِلٌ يُؤْمِنُونَ﴾ وهم : الأصنام والانداد ﴿وَيَبْسُغَتِ اللَّهُ هُمْ بِكُفْرِهِمْ﴾ أى : يسترون نعم الله عليهم ويضيفونها إلى غيره، وفى الحديث الصحيح : «إن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة تمتنا عليه : ألم أروجك؟ ألم أكرمك؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل وأذرك تراس وتربيع؟» (١).

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢﴾

يقول تعالى إخباراً عن المشركين الذين عبدوا معه غيره، مع أنه هو المنعم المفضل الخالق الرازق وحده لا شريك له، ومع هذا يعبدون من دونه من الأصنام والانداد والأوثان ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا﴾ أى : لا يقدر على إنزال مطر ولا إنبات زرع ولا شجرة، ولا يملكون ذلك، أى : ليس لهم ذلك ولا يقدرون عليه لو أرادوه، ولهذا قال تعالى : ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ أى : لا تجعلوا له انداداً وأشباهاً وأمثالا ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أى : إنه يعلم ويشهد أنه لا إله إلا الله ، وأنتم بجهلكم تشركون به غيره .

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنْ آثَارِ رِزْقِ اللَّهِ حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوِي الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٣﴾

قال ابن عباس: هذا مثل ضربه الله للكافر والمؤمن . وكذا قال قتادة، واختاره ابن جرير. فالعبد المملوك الذى لا يقدر على شيء مثل الكافر ، والمرزوق الرزق الحسن فهو ينفق منه سرا وجهرا هو المؤمن . وقال مجاهد : هو مثل مضروب للوثن والحق تعالى، فهل يستوى هذا وهذا؟ ولما كان الفرق ما بينهما بينا واضحا ظاهراً لا يجهله إلا كل غيبى، قال تعالى : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ .

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمٌ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ﴿٤﴾

قال مجاهد: وهذا أيضاً المراد به الوثن والحق تعالى، يعنى: أن الوثن أبكم لا يتكلم ولا ينطق بخير ولا بشيء ، ولا يقدر على شيء بالكلية، فلا مقال، ولا فعال، وهو مع هذا ﴿كَلٌّ﴾ أى : عيال وكلفة على مولاه ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُ﴾ أى : بعثه ﴿لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ ولا ينجح معناه ﴿هَلْ يَسْتَوِي﴾ من هذه صفاته ﴿وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ أى : بالقسط، فقال له حق وفعاله مستقيمة ﴿وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وبهذا قال السدى، وقاتدة وعتاب الخراسانى . واختار هذا القول ابن جرير . وقال ابن عباس: هو مثل للكافر والمؤمن أيضاً، كما تقدم. وعن ابن عباس فى قوله : ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ : نزلت فى رجل من قريش وعبد . وفى قوله : ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمٌ﴾ إلى قوله : ﴿وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ قال :

هو عثمان بن عفان . قال : والابكم الذى اينما يوجهه لا يأت بخير قال : هو مولى لعثمان بن عفان ، كان عثمان يفتق عليه ويكفله ويكفيه الثوبة ، وكان الآخر يكره الإسلام ويأباه وينهاه عن الصدقة والمعروف ، فنزلت فيهما .

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَسْرَأُ السَّاعَةَ إِلَّا كَلِمَةٍ الْبَصِيرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِلَيْكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْاءِ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٨﴾

يخبر تعالى عن كمال علمه وقدرته على الأشياء ، فى علمه غيب السموات والارض ، واختصاصه بذلك ، فلا اطلاع لاحد على ذلك إلا أن يطلعه تعالى على ما يشاء ، وفى قدرته التامة التى لا تخالف ولا تمنع ، وأنه إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن ، فيكون ، كما قال : ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴾ [القم: ٥٠] أى : فيكون ما يريد كطرف العين . وهكذا قال هاهنا : ﴿ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ، كما قال : ﴿ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَحْكُمُ إِلَّا اكْتَفِرَ وَاحِدَةً ﴾ [لقمان : ٢٨] .

ثم ذكر تعالى منه على عباده ، فى إخراجهم إياهم من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئاً ، ثم بعد هذا برزقهم تعالى السمع الذى به يدركون الأصوات ، والابصار اللاتى بها يحسون المرئيات ، والافئدة - وهى العقول - التى مركزها القلب على الصحيح ، وقيل : الدماغ والعقل به يميز بين الأشياء ضارها ونافعها . وهذه القوى والحواس تحصل للإنسان على التدرج قليلا قليلا ، كلما كبر ريد فى سمعه وبصره وقوى عقله حتى يبلغ أشده .

وإنما جعل تعالى هذه فى الإنسان ، ليتمكن بها من عبادة ربه تعالى ، فيستعين بكل جارحة وعضو وقوة على طاعة مولاه ، كما جاء فى صحيح البخارى ، عن أبى هريرة ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : «يقول تعالى : من عادى لى وليا فقد بارزنى بالحرب ، وما تقرب إلى عبدى بمثل أداء ما افترضت عليه . ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، ولئن سألتنى لآعطينه ، ولئن دعانى لآجيبه ، ولئن استعاذ بى لآعيذنه ، وما ترددت فى شيء أنا فاعله ترددى فى قبض نفس عبدى المؤمن ، يكره الموت وأكره مساءته ، ولا بد له منه»^(١) . فمعنى الحديث : أن العبد إذا أخلص الطاعة صارت أفعاله كلها لله عز وجل ، فلا يسمع إلا الله ، ولا يبصر إلا الله ، أى : ما شرعه الله له ، ولا يبطش ولا يمشى إلا فى طاعة الله عز وجل ، مستعينا بالله فى ذلك كله ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ

وَالْأَفِيدَةَ لَكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ كما قال في الآية الأخرى: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفِيدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ. قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُعْشَرُونَ﴾ [الملك: ٢٣، ٢٤].

ثم نبه تعالى عباده إلى النظر إلى الطير المسخر بين السماء والأرض، كيف جعله يطير بجناحيه بين السماء والأرض في جو السماء، ما يمكك هناك إلا الله بقدرته تعالى، الذي جعل فيها قوى تفعل ذلك، وسخر الهواء يحملها ويسر الطير لذلك، كما قال تعالى في سورة الملك: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَالِحَاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُسْكِنُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ [الملك: ١٩]، وقال هاهنا: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُدُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَاوَمْتَمًا إِلَى حَبِينٍ ﴿٢٤﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمُ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ الْمَمِينُ ﴿٢٦﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾

يذكر تبارك وتعالى تمام نعمه على عبده، بما جعل لهم من البيوت التي هي سكن لهم، يأوون إليها، ويسترون بها، ويستعمون بها سائر وجوه الانتفاع، وجعل لهم أيضاً ﴿مِنْ جُدُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا﴾ أي: من الأدم، يستخفون حملها في أسفارهم، ليضربوها لهم في إقامتهم في السفر والحضر؛ ولهذا قال: ﴿تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا﴾ أي: الغنم ﴿وَأَوْبَارِهَا﴾ أي: الإبل، ﴿وَأَشْعَارِهَا﴾ أي: المعز، والضمير عائد على الأنعام ﴿أَثْنَاوَمْتًا﴾ أي: تتخذون منه اثناً، وهو المال. وقيل: المتاع. وقيل: الثياب والصحيح أهم من هذا كله، فإنه يتخذ من الأثاث البسط والثياب، وغير ذلك، ويتخذ مالا وتجارة ﴿إِلَى حَبِينٍ﴾ أي: إلى أجل مسمى ووقت معلوم.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا﴾ قال قتادة: يعني: الشجر ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾ أي: حصونا ومعاقل، كما ﴿جَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾، وهي الثياب من القطن والكتان والصوف ﴿وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمُ بَأْسَكُمْ﴾ كالدرع من الحديد المصقح والزرد وغير ذلك ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: هكذا يجعل لكم ما تستعينون به على أمركم، وما تحتاجون إليه، ليكون عوناً لكم على طاعته وعبادته ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾. أي: من الإسلام.

وقوله: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي: بعد هذا البيان وهذا الامتثال، فلا عليك منهم ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ الْمَمِينُ﴾ وقد أدبته إليهم. ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾ أي: يعرفون أن الله تعالى هو المسدي إليهم ذلك، وهو التفضل به عليهم، ومع هذا يتكبرون ذلك، ويعبدون معه غيره، ويسندون النصر والرزق إلى غيره

﴿ وَأَكْفَرَهُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ .

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ ﴿ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفِّفْ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ ﴿ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ ﴿ وَالْقَوْمَ إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامُ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَرُونَ ﴾ ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴾ ﴿

يخبر تعالى عن شأن المشركين يوم معادهم في الدار الآخرة، وأنه يبعث من كل أمة شهيدا، وهو نبيها، يشهد عليها بما أجابته فيما بلغها عن الله تعالى، ﴿ ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي: في الاعتذار؛ لأنهم يعلمون بطلانه وكذبه، كما قال: ﴿ هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ [المرسلات: ٣٥، ٣٦]. ولهذا قال: ﴿ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾. وإذا رأى الذين ظلموا ﴿ أَي: أشركوا ﴾ العذاب فلا يخفف عنهم ﴿ أَي: لا يفر عنهم ساعة واحدة ﴾ ﴿ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ أي: لا يؤخر عنهم، بل يأخذهم سريعا من الموقف بلا حساب.

ثم أخبر تعالى عن تبرىء آلهتهم منهم أحوج ما يكونون إليها، فقال: ﴿ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ ﴾ أي: الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا ﴿ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ أي: قالت لهم الآلهة: كذبتهم، ما نحن امرناكم بعبادتنا. كما قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴾. وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين ﴿ [الاحقاف: ٥، ٦]، وقال تعالى: ﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا. كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعبادتهم وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ [مریم: ٨١، ٨٢]. وقال الخليل عليه الصلاة والسلام: ﴿ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَأَتُهُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ [التكوير: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا ﴾ [الكهف: ٥٢] والآيات في هذا كثيرة.

وقوله: ﴿ وَالْقَوْمَ إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامُ ﴾ قال قتادة وعكرمة: ذلوا واستسلموا يومئذ، أي: استسلموا لله جميعهم، فلا أحد إلا سامع مطيع، كما قال: ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُوكُمْ ﴾ [مریم: ٣٨] أي: ما اسمعهم وما أبصرهم يومئذ! وقال تعالى: ﴿ وَتَلَوْتُمْ نَجْمَ الْجُذَيْمِ الْمَجْرُومِ نَاكِبُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ١٢]، وقال: ﴿ وَعَسَى أَنْ يَكُونَ لَكُمْ مِنَ الْعَمَلِ الْقَبِيرِ ﴾ [طه: ١١١] أي: خضعت وذلت واستكانت وأنابت واستسلمت ﴿ وَحَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَرُونَ ﴾ أي: ذهب واضمححل ما كانوا يعبدونه افتراء على الله فلا ناصر لهم ولا معين ولا مجير.

ثم قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴾ أي: عذابا على كفرهم، وعذابا على صدمهم الناس عن اتباع الحق، كما قال تعالى: ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْهَوْنَ عَنْهُ ﴾

[الانعام: ٢٦] أى: يهون الناس، عن اتباعه، ويتمتعون هم منه أيضاً ﴿ وَإِنْ يَهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾. [الانعام: ٢٦]. وهذا دليل على تفاوت الكفار فى عذابهم، كما يتفاوت المؤمنون فى منازلهم فى الجنة ودرجاتهم، كما قال تعالى: ﴿ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الاعراف: ٣٨].

﴿ وَيَوْمَ نَبِّئُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾

يقول تعالى مخاطباً عبده ورسوله محمداً ﷺ: ﴿ وَيَوْمَ نَبِّئُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَؤُلَاءِ ﴾ يعنى: أمته، أى: اذكر ذلك اليوم وهوله وما منحك الله فيه من الشرف العظيم والمقام الرفيع.

وقوله: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ قال ابن مسعود: قد بين لنا فى هذا القرآن كل علم، وكل شىء. وقال مجاهد: كل حلال وحرام. وقول ابن مسعود اعم وأشمل، فإن القرآن اشتمل على كل علم نافع من خير ما سبق، وعلم ما سياتى، وحكم كل حلال وحرام، وما الناس إليه محتاجون فى أمر دينهم وديارهم، ومعاشهم ومعادهم ﴿ وَهُدًى ﴾ أى: للقلوب ﴿ وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾. ووجه اقتران قوله: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ ﴾ مع قوله: ﴿ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَؤُلَاءِ ﴾ أن المراد - والله أعلم - : إن الذى فرض عليك تبليغ الكتاب الذى أنزله عليك، سائلك عن ذلك يوم القيامة، ﴿ فَتَسْأَلُنَ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَسَلُنَا الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الاعراف: ٦]، ﴿ فَرِيقٌ لِّسَأَلِهِمْ أَجْمَعِينَ ﴾. عما كانوا يعملون ﴿ [الحجر: ٩٢، ٩٣]، ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أَجْمَعْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا بِئِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ [المائدة: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُكَ إِلَيْنَا مُعَادٍ ﴾ [القصاص: ٨٥] أى: إن الذى أوجب عليك تبليغ القرآن لرادك إليه، ومعيدك يوم القيامة، وسائلك عن أداء ما فرض عليك. هذا أحد الأقوال، وهو متوجه حسن.

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه يأمر عباده بالعدل، وهو القسط والموازنة، ويندب إلى الإحسان، كما قال تعالى: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عَاقَبْتُمْ بِهِ وَإِنَّ صِرَاطَ خَيْرٍ لِلصَّابِرِينَ ﴾ [النحل: ١٢٦]، وقال: ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ [الشورى: ٤٠]، وقال: ﴿ وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ ﴾ [المائدة: ٤٥]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على هذا، من شرعية العدل والندب إلى الفضل. وقال ابن عباس: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ﴾ قال: شهادة أن لا إله إلا الله. وقال سفيان بن عيينة: العدل فى هذا الموضع: استواء السريرة والعلائية من كل عامل لله عملاً. والإحسان: أن تكون سريرته أحسن من علائحته، والفحشاء والمنكر: أن تكون علائحته أحسن من سريرته.

وقوله: ﴿ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ ﴾ أى: يأمر بصلة الأرحام، كما قال: ﴿ وَأَتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذُرْ نَبْذِيرًا ﴾ [الإسراء: ٢٦]. وقوله: ﴿ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ فالفواحش: المحرمات، والمنكرات: ما ظهر منها من فاعلها، ولهذا قال فى الموضع الآخر: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ ﴾ [الاعراف: ٣٣]. وأما البغى فهو: العدوان على الناس. وقد جاء فى الحديث: أما من ذنب

أجلد أن يجعل الله عقوبته في الدنيا، مع ما يدخر لصاحبه في الآخرة، من البغي وقطيعة الرحم^(١).
وقوله: ﴿بِعْظِكُمْ﴾ أى: يأمركم بما يأمركم به من الخير، وينهاكم عما ينهاكم عنه من الشر،
﴿لِعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

قال ابن مسعود: ان أجمع آية في القرآن في سورة النحل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ الآية.
عن قتادة: «تراه»: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ الآية: ليس من خلق حسن كان أهل الجاهلية
يعملون به ويستحسنون إلا أمر الله به، وليس من خلق سيئ كانوا يتعايرونه بينهم إلا نهى الله عنه وقدم
فيه. وإنما نهى عن سفاسف الأخلاق ومذامها. وقد ورد في نزول هذه الآية الكريمة حديث حسن، رواه
الإمام أحمد عن عبد الله بن عباس قال: بينما رسول الله ﷺ بفناء بيته جالس، إذ مر به عثمان بن
مظعون، فكشر إلى رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: «ألا تجلس؟» فقال: بلى. قال:
فجلس رسول الله ﷺ مستقبه، فبينما هو يحدثه إذ شخّص رسول الله ﷺ بصره إلى السماء،
فنظر ساعة إلى السماء فأخذ يضع بصره حتى وضعه على يمتة في الأرض، فتحرف رسول الله ﷺ
عن جليسه عثمان إلى حيث وضع بصره فأخذ ينفض رأسه كأنه يستفقه ما يقال له، وابن مظعون ينظر
فلما قضى حاجته واستفقه ما يقال له، شخّص بصر رسول الله ﷺ إلى السماء كما شخّص أول مرة.
فأتبعه بصره حتى توارى في السماء. فأقبل إلى عثمان بجلسه الأولى فقال: يا محمد، فيم كنت
أجالسك ما رأيتك تفعل كفعلك الغداة! قال: «وما رأيتنى فعلت؟» قال: رأيتك شخّص بصرك إلى
السماء ثم وضعته حيث وضعته على يمينك، فنحرفت إليه وتركتنى، فأخذت تُنفض رأسك كأنك تستفقه
شيئا يقال لك. قال: «وفظنت لذلك؟» فقال عثمان: نعم. قال رسول الله ﷺ: «أتاني رسول الله أنفا
وانت جالس». قال: رسول الله؟ قال: «نعم». قال: فما قال لك؟ قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ
وَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ عِندَ مَا تُرْسَلُونَ وَالَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ عِندَ مَا تُرْسَلُونَ﴾ قال عثمان: فذلك حين استقر الإيمان
في قلبي، وأحببت محمداً ﷺ. إسناده جيد متصل حسن^(٢).

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَفْضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ
كَيْلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ ﴿٢٢٤﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَبْنَا
نَسْجُدُونَ أَنَّمَنْكُرُ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ مِنْ أَرَبَيْنِ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبُلُوكُمْ اللَّهُ بِهِ، وَلَيَبْتَلَنَّ لَكُمْ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ ﴿٢٢٥﴾

وهذا مما يأمر الله تعالى به، وهو: الوفاء بالعهود والمواثيق، والمحافظة على الأيمان المؤكدة؛ ولهذا
قال: ﴿وَلَا تَفْضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾. ولا تعارض بين هذا وبين قوله: ﴿وَلَا تَجْهَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ
تَبَرُّوا وَتَقُولُوا وَتَصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [البقرة: ٢٢٤] وبين قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ كَفَّارَةٌ لَأَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾
[المائدة: ٨٩] أى: لا تتركوها بلا تكفير، لا تعارض بين هذا ولا بين الآية المذكورة هاهنا وهى قوله:
﴿وَلَا تَفْضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾؛ لأن هذه الأيمان المراد بها الداخلة فى العهود والمواثيق، لا الأيمان التى

(١) المسند (٣٦/٥)، والترمذى (٢٥١١)، وقال: «حدث حسن صحيح».

(٢) المسند (٢٩٢٢)، وقال الشيخ أحمد شاكر: «إسناده صحيح».

هي واردة على حَتَّ أو منع؛ ولهذا قال مجاهد في قوله: ﴿وَلَا تَقْعُصُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ يعني: الحلف، أى: حلف الجاهلية؛ ويؤيده ما رواه الإمام أحمد عن جبير بن مطعم قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا حِلْفَ فِي الْإِسْلَامِ، وَإِنَّمَا حِلْفُ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ لَمْ يَزِدْهُ الْإِسْلَامُ إِلَّا شِدَّةً». وكذا رواه مسلم^(١). ومعناه: أن الإسلام لا يحتاج معه إلى الحلف الذى كان أهل الجاهلية يفعلونه، فإن فى التمسك بالإسلام كفاية عما كانوا فيه. وأما ما ورد فى الصحيحين عن أنس، أنه قال: حالف رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار فى دارنا^(٢) - فمعناه: أنه أخى بينهم، فكانوا يتوارثون به، حتى نسخ الله ذلك، والله أعلم. وروى الإمام أحمد عن نافع قال: لما خلع الناس يزيد بن معاوية، جمع ابن عمر بينه وأهله، ثم تشهد، ثم قال: أما بعد، فإننا قد بايعنا هذا الرجل على بيع الله ورسوله، وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِن الْغَدْرَ يُنْصَبُ لَهُ لَوَاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَقَالُ: هَذِهِ غَدْرَةُ فُلَانٍ، وَإِن مِّنْ أَعْظَمَ الْغَدْرِ - إِلَّا أَنْ يَكُونَ الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ - أَنْ يَبَايِعَ رَجُلٌ رَجُلًا عَلَى بَيْعِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، ثُمَّ يَنْكُثُ بَيْعَتَهُ، فَلَا يَخْلَعُنْ أَحَدٌ مِنْكُمْ يَزِيدُ، وَلَا يَسْرِفُنْ أَحَدٌ مِنْكُمْ فِي هَذَا الْأَمْرِ، فَيَكُونَ صَيْلِمٌ بَيْنِي وَبَيْنَهُ». المرفوع منه فى الصحيحين^(٣).

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَهْتَمُّ مَا تَقْتُلُونَ﴾ تهديد ووعيد لمن نقض الأيمان بعد توكيدها.

وقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَفَقَتْ غُرْلُهُمْ مِنْ بَعْدِ قُرَّةِ أُنْكَائِهِمْ﴾ قال مجاهد، وقاتة: هذا مثل لمن نقض عهده بعد توكيده «أُنْكَائِهِمْ»: يحتمل أن يكون اسم مصدر: نقضت غرلها أنكائا، أى: أنقاضا. ويحتمل أن يكون بدلا عن خبر كان، أى: لا تكونوا انكائا، جمع نكث من ناكث؛ ولهذا قال بعده: ﴿صَخْنُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلَا بَيْنَكُمْ﴾ أى: خديعة ومكرا «أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ مِّمِّي أَرَبِيٍّ مِنْ أُمَّةٍ» أى: يحلفون للناس إذا كانوا أكثر منكم ليطمئنتوا إليكم، فإنما أمكنكم الغدر بهم غدرتم. فهى الله عن ذلك، لينبه بالادنى على الأعلى؛ إذا كان قد نهى عن الغدر والحالة هذه، فلان ينهى عنه مع التمكن والقدرة بطريق الأولى. قال ابن عباس: «أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ مِّمِّي أَرَبِيٍّ مِنْ أُمَّةٍ» أى: أكثر. وقال مجاهد: كانوا يحالفون الحلفاء، فيجدون أكثر منهم وأحر، فينقضون حلف هؤلاء ويحالفون أولئك الذين هم أكثر وأحر. فنهوا عن ذلك.

وقوله: ﴿إِنَّمَا يُلْوِمُكُمْ اللَّهُ فِي﴾ قال سعيد بن جبير: يعنى بالكثرة، وقال ابن جرير: أى: بأمره إياكم بالوفاء والعهد. «وَلَيْسَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخَافُونَ» فيجازى كل عامل بعمله، من خير وشر.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَنْ نُشِئَنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وَلَا تَنْخَبِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلَا بَيْنَكُمْ فَزِيلَ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذَرُوا السُّوَاءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكِنَّ عَذَابَ عَظِيمٍ وَلَا تَشْتَرُوا بِمَهْدِ اللَّهِ تَمَنَّا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لِّكَرٍّ إِنْ كُنتُمْ تَعْمَلُونَ مَا عِدْكُمْ بِنَفْسِهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بِأَقْبَلُ وَلَنْجَزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

(١) المسند (٤/٨٣)، ومسلم (٢٠٦/٢٥٣٠). (٢) البخارى (٢٢٩٤)، ومسلم (٢٠٤/٢٥٢٩).

(٣) المسند (٥٠٨٨)، والبخارى (٣١٨٨) ومسلم (٩/١٧٣٥).

يقول تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ﴾ أيها الناس ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩] أي: لوفق بينكم، ولما جعل اختلافا ولا تباعضا ولا شحنا، ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ. إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩]، وهكذا قال هاهنا: ﴿وَلَكِن يَعْصِي مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ ثم يسألكم يوم القيامة عن جميع أعمالكم، فيجازيكم عليها على الفئيل والتفير والقطمير.

ثم حذر تعالى عباده عن اتخاذ الإيمان دخلا، أي: خديعة ومكرا، لئلا تزل قدم بعد ثبوتها؛ مثل لمن كان على الاستقامة فحاد عنها وزل عن طريق الهدى، بسبب الإيمان الخائنة المشتملة على الصد عن سبيل الله؛ لأن الكافر إذا رأى أن المؤمن قد عاهده ثم غدر به، لم يبق له وثوق بالدين، فانصد بيبه عن الدخول في الإسلام؛ ولهذا قال: ﴿وَتَذُقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي: لا تعتاضوا عن الإيمان بالله عرض الحياة الدنيا ورثتها، فإنها قليلة، ولو حيزت لابن آدم الدنيا بخذافيرها لكان ما عند الله هو خير له، أي: جزاء الله وثوابه خير لمن رجاه وآمن به وطلبه، وحفظ عهده رجاء موعوده؛ ولهذا قال: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ. مَا عِنْدَكُمْ يَبْذَرُهُ الْبَرْقُ وَيُقْضَى، فَإِنَّهُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّعَدَّدٍ مَّحْضُورٌ مُّقَدَّرٌ مُّتَّانٍ﴾ ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ أي: وثوابه لكم في الجنة باق لا انقطاع ولا نفاذ له فإنه دائم لا يحول ولا يزول ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: قسم من الرب عز وجل، أنه يجازي الصابرين بأحسن أعمالهم، أي: ويتجاوز عن سيئها.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

هذا وعد من الله تعالى لمن عمل صالحا - وهو العمل المتابع لكتاب الله تعالى وسنة نبيه، من ذكر أو أنثى من بني آدم، وقلبه مؤمن بالله ورسوله، وأن هذا العمل المأمور به مشروع من عند الله - بأن يحييه الله حياة طيبة في الدنيا وأن يجزيه بأحسن ما عمله في الدار الآخرة. والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة من أي جهة كانت. وقد روى عن ابن عباس وجماعة أنهم فروها بالرزق الحلال الطيب. وعن علي بن أبي طالب أنه فرها بالقناعة. وكذا قال ابن عباس، وعكرمة، وهب بن منبه. وقال الحسن، وقادة: لا يطيب لأحد الحياة إلا في الجنة. وقال الضحاك: هي العمل بالطاعة والانشراح بها.

والصحيح أن الحياة الطيبة تشمل هذا كله كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن عبد الله ابن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «قد أفلح من أسلم ورزق كفافا، وقنعه الله بما آتاه». ورواه مسلم^(١). وروى الترمذى والنسائى عن فضالة بن عبيد؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «قد أفلح من هدى إلى الإسلام، وكان عيشه كفافا، وقنع به». وقال الترمذى: هذا حديث صحيح^(٢).

وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا يظلم المؤمن حسنة

(١) المسند (٦٥٧٢)، ومسلم (١٠٥٤/١٢٥).

(٢) الترمذى (٢٣٤٩)، وعزاه صاحب التحفة (٢٦١/٨) إلى الترمذى والنسائى في الرقائق في الكبرى ثم استدرج وقال: حديث النسائى ليس في الرواية ولم يذكره أبو القاسم.

يعطى بها فى الدنيا ويثاب عليها فى الآخرة واما الكافر فيعطيه حسنته فى الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يعطى بها خيراًه . انفراد بإخراجه مسلم (١) .

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُكُمْ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُم وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

هذا أمر من الله لعباده على لسان نبيه ﷺ ، إذا أرادوا قراءة القرآن: أن يستعينوا بالله من الشيطان الرجيم . وهو أمرٌ ندب ليس بواجب ، والمعنى فى الاستعاذة عند ابتداء القراءة: لتلا بلبس على القارئ قراءته ويخلط عليه ، ويمتنع من التدبر والتفكر ، ولهذا ذهب الجمهور إلى أن الاستعاذة إنما تكون قبل التلاوة .

وقوله: ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ : قال الثورى: ليس له عليهم سلطان أن يوقعهم فى ذنب لا يتوبون منه ، وقال آخرون : معناه: لا حجة له عليهم ﴿ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ قال مجاهد: يطيعونه ، وقال آخرون: اتخذه ولياً من دون الله ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ أى: أشركوه فى عبادة الله تعالى ، ويحتمل أن تكون الباء سببية ، أى: صاروا بسبب طاعتهم للشيطان مشركين بالله تعالى .

﴿ وَإِذَا بَدَأْنَا آيَةً مَّكَاتٍ أَوْ آيَةً وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُرْسَلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ كَذَّبْتُمْ بِآيَاتِنَا إِذْ هُمْ لَا يُعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ فُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾

يخبر تعالى عن ضعف عقول المشركين وقلة ثباتهم وإيقانهم ، وأنه لا يتصور منهم الإيمان وقد كتب عليهم الشقاوة ، وذلك أنهم إذا رأوا تغيير الأحكام ناسخها بمسوخها قالوا للرسول: ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ ﴾ أى: كذاب ، وإنما هو الرب تعالى يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد . فقال تعالى مجيباً لهم: ﴿ فُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ ﴾ أى: جبريل ﴿ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ أى: بالصدق والعدل ﴿ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ فيصدقوا بما نزل أولاً وثانياً وتختبئ له قلوبهم ﴿ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ أى: وجعله هادياً وبشارة للمسلمين الذين آمنوا بالله ورسوله .

﴿ وَلَقَدْ نَعَلْنَا أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين ما كانوا يقولونه من الكذب والافتراء والبهت: إن محمداً إنما يعلمه هذا الذى يتلوه علينا من القرآن بشرى ، ويشيرون إلى رجل أعجمى كان بين أظهرهم ، غلام لبعض بطون قريش ، وكان يباعا يبيع عند الصفا ، فرمما كان رسول الله ﷺ يجلس إليه ويكلمه بعض الشيء ، وذاك كان أعجمى اللسان لا يعرف العربية ، أو أنه كان يعرف الشيء اليسير بقل ما يرد جواب الخطاب فيما لا بد منه ؛ فلهذا قال الله تعالى راداً عليهم فى افتراءهم ذلك: ﴿ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾ . يعنى: القرآن ، أى: فكيف يتعلم من جاء بهذا القرآن ، فى فصاحته وبلاغته

ومعانيه التامة الشاملة، كيف يتعلم من رجل اعجمي؟! لا يقول هذا من له ادنى مُسْكَة من العقل.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

يخبر تعالى انه لا يهدي من اعرض عن ذكره وتغافل عما انزله على رسوله، ولم يكن له فصد إلى الإيمان بما جاء من عند الله، فهذا الجنس من الناس لا يهديهم الله إلى الإيمان بآياته وما ارسل به رسوله في الدنيا، ولهم عذاب اليم موجع في الآخرة . ثم اخبر تعالى أن رسوله ليس بمفتر ولا كذاب؛ لانه ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ ﴾ على الله وعلى رسوله شرارُ الخلق ﴿ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ من الكفرة والملاحدين المعروفين بالكذب عند الناس . والرسول محمد ﷺ ، كان اصدق الناس وابهرهم واكملهم علما وعملا وإيمانا وإيقانا، معروفا بالصدق في قومه، لا يشك في ذلك احد منهم بحيث لا يدعى بينهم إلا بالأمين محمد .

﴿ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلا مَن أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَئِن مِّن شَرِّكَ بِالْكَفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفٰقِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لِأَجْرِمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ﴾

اخبر تعالى عن كفر به بعد الإيمان والتبصر، وشرح صدره بالكفر واطمان به: انه قد غصب عليه، لملهم بالإيمان ثم عدولهم عنه، وأن لهم عذابا عظيما في الدار الآخرة؛ لانهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة، فأقدموا على ما أقدموا عليه من الردة لاجل الدنيا، ولم يهد الله قلوبهم ويشتم على الدين الحق، فطبع على قلوبهم فلا يعقلون بها شيئا يتفهم وختم على سمعهم وأبصارهم فلا يتفهمون بها، ولا أغنت عنهم شيئا، فهم غافلون عما يراد بهم . ﴿ لا جرم ﴾ أى : لا يد ولا عجب أن هذه صفته ﴿ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخٰسِرُونَ ﴾ أى : الذين خسروا انفسهم وأهاليهم يوم القيامة .

واما قوله: ﴿ إِلا مَن أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ ﴾ : فهو استثناء عن كفر بلسانه ووافق المشركين بلفظه مكرها لما ناله من ضرب وأذى، وقلبه يأبى ما يقول، وهو مطمئن بالإيمان بالله ورسوله . وعن ابن عباس : ان هذه الآية نزلت في عمار بن ياسر، حين عذبه المشركون حتى يكفر بمحمد ﷺ ، فوافقهم على ذلك مكرها، وجاء معتبرا إلى النبي ﷺ ، فأنزل الله هذه الآية ولهذا اتفق العلماء على انه يجوز أن يؤلى الكفرة على الكفر، إبقاء لمهجته، ويجوز له أن يستحل، كما كان بلال رضى الله عنه يأبى عليهم ذلك وهم يفعلون به الأفاعيل، حتى إنهم ليضمون الصخرة العظيمة على صدره فى شدّة الجرح، ويأمرونه أن يشرك بالله فيأبى عليهم وهو يقول: أحد، أحد . ويقول: والله لو أعلم كلمة هي أغبط لكم منها لقلتها، رضى الله عنه وأرضاه .

والأفضل والأولى أن يثبت المسلم على دينه، ولو أفضى إلى قتله، كما قال الحافظ ابن عساکر، فى ترجمة عبد الله بن حذافة السهمي أحد الصحابة : أنه أسرته الروم ، فجاؤوا به إلى ملكهم، فقال

له: تنصروا وأنا أشرك في ملكي وأزوجك ابنتي. فقال له: لو أعطيتني جميع ما تملك وجميع ما تملكه العرب، على أن أرجع عن دين محمد طرفة عين، ما فعلت! فقال: إذا أتتلك. قال: أنت وذاك! فأمر به فصلب، وأمر الرماة فرموه قريبا من يديه ورجليه، وهو يعرض عليه دين النصرانية، فيأبى، ثم أمر به فأنزل، ثم أمر بقدْر. وفي رواية: ببقرة من نحاس، فأحميت، وجاء بأسير من المسلمين فالتقاها وهو ينظر، فإذا هو عظام تلوح. وعرض عليه فأبى، فأمر به أن يلقى فيها، فرفع في البكرة ليلقى فيها، فبكي قطع فيه ودعاء فقال له: إني إنما بكيت لأن نفسي إنما هي نفس واحدة، تلتقى في هذه القدر الساعة في الله، فأحببت أن يكون لي بعدد كل شعرة في جسدي نفس تعذب هذا العذاب في الله. وفي بعض الروايات: أنه سجنه ومنع عنه الطعام والمشرب أياما، ثم أرسل إليه بخمر ولحم خنزير، فلم يقربه، ثم استدعاه فقال: ما منعك أن تأكل؟ فقال: أما إنه قد حل لي، ولكن لم أكن لأشمتك في. فقال له الملك: فقيل رأسي وأنا أطلقك. فقال: وتطلق معي جميع أسارى المسلمين؟ قال: نعم. فقبل رأسه، فأطلقه وأطلق معه جميع أسارى المسلمين عنده، فلما رجع قال عمر بن الخطاب: حق على كل مسلم أن يقبل رأس عبد الله بن حنيفة، وأنا أبدا. فقام فقبل رأسه.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَدْيٍ مَا فُتِنُوا تَرَّ جِهَتُهُمْ وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَدْيِهَا لَعَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٠﴾ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ بِجَدِيدٍ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾﴾

هؤلاء صف آخر كانوا مستضعفين بمكة، مهانين في قومهم قد واتوهم على الفتنة، ثم إنهم أمكنهم الخلاص بالهجرة، فتركوا بلادهم وأهليهم وأموالهم ابتغاء رضوان الله وغفرانه، وانتظموا في سلك المؤمنين، وجاهدوا معهم الكافرين، وصبروا، فأخبر الله تعالى أنه ﴿من بعدنا﴾ أي: تلك القعدة، وهي الإجابة إلى الفتنة لعفور لهم، رحيم بهم يوم معادهم. ﴿يوم تأتي كل نفس تجادل﴾ أي: لحاج ﴿عن نفسها﴾ ليس أحد يحاج عنها لا أب ولا ابن ولا أخ ولا زوجة ﴿وتؤتى كل نفس ما عملت﴾ أي: من خير وشر ﴿وهم لا يظلمون﴾ أي: لا ينقص من ثواب الخير ولا يزداد على ثواب الشر، ولا يظلمون نقيراً.

﴿وَصَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ إِيَّاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾

هذا مثل أريد به أهل مكة، فإنها كانت آمنة مطمئنة مستقرة يُخطف الناس من حولها، ومن دخلها آمن لا يخاف، كما قال تعالى: ﴿أَوْ لَمْ تُكِنُّ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُحْيِي إِلَهُ تَمَرَاتٍ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا﴾ [النص: ٥٧] وهكذا قال ما هنا: ﴿بآياتها رزقها رغدا﴾ أي: هينها سهلا ﴿من كل مكان فكفرت بأنعم الله﴾ أي: جحدت آلاء الله عليها وأعظم ذلك بعثة محمد ﷺ إليهم، كما قال تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين بدأوا بغتة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار. جهنم يصلونها وبس القرآن﴾ [إبراهيم: ٢٨، ٢٩]. ولهذا بدلهم الله بحالهم الأولين خلافهما، فقال: ﴿فأذقها الله إيَّاسَ الْجُوعِ﴾ أي: البسها وأذاقها الجوع بعد أن كان يحيي إليهم تمرات كل شيء، وآياتها رزقها رغدا من كل مكان.

وقوله: ﴿ وَالْخَوْفِ ﴾ وذلك بأنهم يُدْكَرُوا بأمنهم خوفاً من رسول الله ﷺ وأصحابه، حين هاجروا إلى المدينة، من سطوة سراياه وجيوشه، وجعلوا كل ما لهم في سَفَالٍ ودمار، حتى فتحها الله عليهم، وذلك بسبب صنيعهم وبغيتهم وتكذيبهم الرسول الذي بعثه الله فيهم منهم، وامتن به عليهم في قوله: ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وقال تعالى: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا . رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مَبِينَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ [الطلاق: ١٠، ١١] الآية وقوله: ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَلَا تَكْفُرُونَ ﴾ [البقرة: ١٥١، ١٥٢]. وكما أنه انعكس على الكافرين حالهم، فخافوا بعد الأمن، وجاعوا بعد الرغد، بَدَّلَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا، ورزقهم بعد العَيْلَةِ، وجعلهم أمراء الناس وحكامهم، وسادتهم وقادتهم وانتمت لهم. وهذا الذي قلناه من أن هذا المثل مضروب لكفة، قاله العوفي، عن ابن عباس، وإليه ذهب مجاهد، وقناة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وحكاه مالك عن الزهري، رحمهم الله.

﴿ تَكُلُّوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَأَشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴾
 إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلِيَ لِيَعْبُدِ اللَّهُ بِهِ . فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَإِجْرٍ وَلَا عَاوِزٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٠٠﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتَكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنَفْسِنَا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يَفْلِحُونَ ﴿١٠١﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٢﴾

يقول تعالى أمرا عباده المؤمنين باكل رزقه الحلال الطيب، وبشكره على ذلك، فإنه النعم المفضل به ابتداء، الذي يستحق العبادة وحده لا شريك له، ثم ذكر ما حرمه عليهم مما فيه مضرة لهم في دينهم ودنياهم، من الميتة والدم، ولحم الخنزير ﴿ وَمَا أُهْلِيَ لِيَعْبُدِ اللَّهُ بِهِ ﴾ أى: ذبح على غير اسم الله، ومع هذا ﴿ فَمَنْ اضْطُرَّ ﴾ أى: احتاج في غير بغي ولا عدوان ﴿ لِإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ وقد تقدم الكلام على مثل هذه الآية في سورة «البقرة»^(١) بما فيه كفاية عن إعادته

ثم نهى تعالى عن سلوك سبيل المشركين، الذين حللوا وحرّموا بمجرد ما وضعوه واصطلحوا عليه من الأسماء بأرائهم، من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، وغير ذلك مما كان شرعا لهم ابتدعوه في جاهليتهم، فقال: ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتَكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنَفْسِنَا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ﴾ . ويدخل في هذا كل من ابتدع بدعة ليس فيها مستند شرعى، أو حلل شيئا مما حرم الله، أو حرم شيئا مما أباح الله، بمجرد رايه وتشهيه. ثم توعد على ذلك فقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يَفْلِحُونَ ﴾ أى: فى الدنيا ولا فى الآخرة. أما فى الدنيا فمتاع قليل، وأما فى الآخرة فلهم عذاب أليم، كما قال: ﴿ نَجْزِيهِمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [لقمان: ٢٤] وقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يَفْلِحُونَ ﴾ . متاع فى الدنيا ثم ألبسوا مرجعهم ثم نذبتهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون ﴿ [يونس: ٦٩، ٧٠].

﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا فَصَّصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلٍ وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ ثُمَّ إِنَّ

(١) راجع تفسير الآية (١٣٧) .

رَبِّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٨﴾

لما ذكر تعالى أنه إنما حرم علينا الميتة والدم ولحم الخنزير، وما أهل لغير الله به، وأنه أرخص فيه عند الضرورة وفي ذلك توسعة لهذه الأمة، ذكر سبحانه وتعالى ما كان حرمه على اليهود في شرعهم قبل أن ينسخها، وما كانوا فيه من الأضرار والأغلال والخرج والتضييق، فقال: ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حُرْمًا مَّا قُصِبْنَا عَلَيْكَ مِنَ قُبُلٍ ﴾ بمعنى قوله: ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حُرْمًا كُلِّ ذِي ظَهْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالنَّمْرِ حُرْمًا عَلَيْهِمْ حُرْمُهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَضَبَ بِعَظْمِ ذَلِكَ جَزَيْتَاهُمْ بِهِمْ وَأَنَا صَادِقُونَ ﴾ [الانعام: ١٤٦]، ولهذا قال هاهنا: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ ﴾ أى: فيما ضيقنا عليهم ﴿ وَلكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ أى: فاستحقوا ذلك، كما قال: ﴿ لِيُظْهِرَ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حُرْمًا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِضْعَمٍ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾ [النساء: ١٦٠].

ثم أخبر تعالى تكراً وامتثالاً في حق العصاة المؤمنين: أن من تاب منهم إليه تاب عليه، فقال: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ﴾ قال بعض السلف: كل من عصى الله فهو جاهل ﴿ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا ﴾ أى: أقبلوا عما كانوا فيه من المعاصي، وأقبلوا على فعل الطاعات ﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا ﴾ أى: تلك القملة والذلة ﴿ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾.

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَّلَا يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ﴿ شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ آجِنَةً وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ ﴿ وَمَا تَنبَأْهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَرَأَتْهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ﴿

يمدح تعالى عبده ورسوله وخليله إبراهيم، إمام الحنفاء ووالد الأنبياء، ويبرئه من المشركين ومن اليهودية والنصرانية فقال: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا ﴾، فاما «الامة»، فهو الإمام الذى يقتدى به. والقانت: هو الخاشع الطيع. والحنيف: المنحرف قسداً عن الشرك إلى التوحيد؛ ولهذا قال: ﴿ وَتَمَّ بِكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾.

وقوله: ﴿ شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ ﴾ أى: قائماً بشكر نعم الله عليه، كما قال: ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَكَّلْنَا بِالنَّجْمِ ﴾ [١٣٧]، أى: قام بجميع ما أمره الله تعالى به «اجتبه» أى: اختاره واصطفاه ﴿ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ وهو عبادة الله وحده لا شريك له على شرع مرضى. وقوله: ﴿ وَرَأَتْهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ أى: جمعنا له خير الدنيا من جميع ما يحتاج المؤمن إليه فى إكمال حياته الطيبة ﴿ وَرَأَتْهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾. وقال مجاهد فى قوله: ﴿ وَرَأَتْهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ أى: لسان صدق. وقوله: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾ أى: ومن كماله وعظمت وصحة توحيده وطريقه، أنا أوحينا إليك يا خاتم الرسل وسيد الأنبياء: ﴿ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾، كما قال: ﴿ قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قَبِيحًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الانعام: ١٦١]، ثم قال تعالى منكراً على اليهود:

﴿ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ ﴿

لا شك ان الله شرع في كل ملة يوماً من الاسبوع، يجتمع الناس فيه للعبادة، فشرع تعالى لهذه الامة يوم الجمعة؛ لانه اليوم السادس الذي اكمل الله فيه الخليفة، وتمت النعمة على عباده. ويقال: انه تعالى شرع ذلك لبني اسرائيل على لسان موسى، فعدلوا عنه واختاروا السبت؛ لانه اليوم الذي لم يخلق فيه الرب شيئاً من المخلوقات الذي كمل خلقها يوم الجمعة، فالزمهم تعالى به في شريعة التوراة، ووصاهم ان يتمسكوا به وان يحافظوا عليه، مع امره اياهم بمتابعة محمد ﷺ إذا بعثه، واخذهم موافقهم وعهودهم على ذلك؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَفَوْا فِيهِ ﴾. قال مجاهد: اتبعوه وتركوا الجمعة. وقد ثبت في الصحيحين عن ابي هريرة، انه سمع رسول الله ﷺ يقول: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، ثم هذا يومهم الذي فرض الله عليهم فاختلفوا فيه، فهدانا الله له، فالتاس لنا فيه تبع، اليهود غدا، والنصارى بعد غدا». لفظ البخاري (١).

وعن ابي هريرة، وحذيفة، قالا: قال رسول الله ﷺ: «أضل الله عن الجمعة من كان قبلنا، فكان لليهود يوم السبت، وكان للنصارى يوم الأحد، فجاء الله بنا فهدانا الله ليوم الجمعة، فجعل الجمعة والسبت والأحد، وكذلك هم تبع لنا يوم القيامة، نحن الآخرون من أهل الدنيا والأولون يوم القيامة، والمقضى بينهم قبل الخلاق». رواه مسلم (٢).

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِّ لَهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ
بِمَن ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾

يقول تعالى أمراً رسوله محمداً ﷺ أن يدعو الخلق إلى الله «بالحكمة» قال ابن جرير: وهو ما انزله عليه من الكتاب والسنة «والموعظة الحسنة» أي: بما فيه من الزواجر والوقائع بالناس ذكرهم بها، ليحذروا بأس الله تعالى. وقوله: «وجادلهم بالتي هي أحسن» أي: من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال، فليكن بالوجه الحسن برفق ولين وحسن خطاب، كما قال: «ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم» [المتكبر: ٤٦] فأمره تعالى بلين الجانب، كما أمر موسى وهارون، عليهما السلام، حين بعثهما إلى فرعون فقال: «فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى» [طه: ٤٤].

وقوله: «إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين» أي: قد علم الشقي منهم والسعيد، وكتب ذلك عنده وفرغ منه، فادعهم إلى الله، ولا تذهب نفسك على من ضل منهم حشرات، فإنه ليس عليك هدايم إنما أنت نذير، عليك البلاغ، وعلينا الحساب، «إنك لا تهدي من أحببت» [القصر: ٥٦].

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَلَالٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا
وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾

يأمر تعالى بالعدل في الاتصاف والمائلة في استيفاء الحق، كما قال ابن سيرين في قوله تعالى: ﴿ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ﴾: إن أخذ منك رجل شيئاً، فخذ منه مثله. وكذا قال مجاهد، وإبراهيم،

والحسن البصرى، وغيرهم. واختاره ابن جرير. وهذه الآية الكريمة لها أمثال فى القرآن، فإنها مشتملة على مشروعية العدل والتدب إلى الفضل، كما فى قوله: ﴿ وَجَزَاءً سَيِّئَةً سَيِّئًا مِثْلُهَا ﴾، ثم قال: ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ [الشورى: ٤١]. وقال: ﴿ وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ ﴾، ثم قال: ﴿ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ ﴾ [المائدة: ٤٥]، وقال فى هذه الآية الكريمة: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عَرَّبْتُمْ بِهِ ﴾، ثم قال: ﴿ وَتَكُنْ صَبْرَتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴾.

وقوله: ﴿ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾: تأكيد للأمر بالصبر، وإخبار بأن ذلك إنما يتأتى بمشيئة الله وإعانتة، وحوله وقوته ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ أى: على من خالفك، لا تحزن عليهم؛ فإن الله قدر ذلك، ﴿ وَلَا تَكُ فِي حَيْلٍ ﴾ أى: غم ﴿ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ أى: مما يجهدون فى عداوتك وإيصال الشر إليك، فإن الله كافيك وناصرك، ومؤيدك، ومظهرك ومظفرك بهم.

وقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ أى: معهم بتأييده ونصره ومعونته وهذه معية خاصة، كقوله: ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنْيْ مَعَكُمْ فَتُنزِلُوا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [الأنفال: ١٢]، وقوله لموسى وهارون: ﴿ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ [طه: ٤٦]، وقول النبي ﷺ للصدیق وهما فى الغار: ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة: ٤٠] وأما المعية العامة فبالسمع والبصر والعلم، كقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الحديد: ٤]، وكقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَطَّلِمُ مَا فى السَّمَوَاتِ وَمَا فى الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ﴾ [المجادلة: ٧]، وكما قال تعالى: ﴿ وَمَا تَكُونُ فى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُبْعَثُونَ بِهِ وَمَا يَخْرُجُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مَقَالٍ ذُرَّةً فى الْأَرْضِ وَلَا فى السَّمَاءِ وَلَا أَصْفَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فى كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾. [يونس: ٦١].

ومعنى ﴿ الَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾ أى: تركوا المحرمات، ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ أى: فعلوا الطاعات، فهؤلاء الله يحفظهم ويكلوهم، وينصرهم ويؤيدهم، ويظفرهم على أعدائهم ومخالفهم.